

أحمد فؤاد تيمور

أعترف إليك

وقصص أخرى



اقرا

تصديق اوليت كل شهر
[٣١٥] مارس ١٩٨١

رئيس التحرير **أنيس منصور**

أحمد فؤاد تيمور

أعترف إليك وقصَّص أخري



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الاءاء

إلى حب عمرى ..

ملهمتى ..

زوجتى

أعترف إليك

مهداة إلى صديقي : ص . أ
رمز محبة وإعزاز وتقدير . . .

بعد ساعات ، سألقاك في المطار الذي ودعتك فيه ،
واستودعتك الطائر الذي احتملك على جناحيه ، إلى بلاد
تناءت عنا ، تنشدين لجسديك الراحة ، ولنفسك البرء .

ركبت الهواء ، ذلك الأرعن المأفون ، وإنها لمخاطرة ، أملتها
علينا ظروف طاغية ، لولاها لتخيرت لسعيك سبيلا أكثر
أمناً ، وأسلم جانباً .

لقد طالعتي الطائر يوم رحيلك ، يربض على أرض المطار ،
مشرعاً جناحيه ، في أنفة واعتزاز ، وقد رفت على ثغره ابتسامة
هازئة ، توضح لي مع تباشير الفجر النامية ، وكأنه فطن إلى
ما يعمل في نفسي من مخاوف ووساوس ، وظنون .

فألفيتني أشتبك معه في مناجاة هامسة ، ضارعاً إليه أن
يتجنب في مسراه نزق الريح ، وأن يلتمس من الحيل عوناً على
مجالدة الجو والسيطرة عليه حتى تكتب لكما السلامة ، وتأنس
بكما البسيطة من جديد ، تزجي لكما التحايا ، في إقبال ويمن .

والآن ! بعد انقضاء ذلك الوقت المديد ، وقد ارتقى الطائر
متن الريح ، يقفل بك راجعاً من المصبح البعيد ، ما برحت به
أناجيه ، وأسدى له النصيح ، كشأني معه ساعة مرق إلى السماء ،
يحتجب عنا خلف أستار السحب .

لم أكف ، منذ ذلك الحين ، عن مصاحبتك ، والاجتماع
بك ، أسايرك حيث ترحلين ، وأمسي حيث تسمين ، إن أظلت
جبينك غشاوة من تفكير ، أقبلت أفاكهك ، حتى ترف على
ثغرك ابتسامة ، ويتضوأ على محياك إشراق .

لست منك إلا ذلك الراصد الدؤوب ، الذي لا يبتغي
لك في سهره ويقظته إلا الأنس والإمتاع .

أقسم إن قلبي لمستودع كبير ، يعمره لك حب وإعجاب وتقدير .

أما فتئت تعتقدين أني أخدعك وأضحك منك ؟

دعيني أكاشفك بالداء الذي يعتمل في نفسك ، يورثك
المخافة والقلق .

زعمت أني أخونك . . . ! أخونك في أطراف النهار ،
وغاشية الليل .

منذ سنين ونحن زوجان . . . !

أما حان لك أن تقرى بما أنا منغمس فيه ، من موفور

الجهد ، وموصول السعى ؟

أعهدت منى وقت فراغ ، وساعة لهُو ؟

أساحر أنا ، قادر على الغداة والعشي ، أصرِف الوقت
فيهما ، بإمرة منى وسلطان ، إن أشرت إليه ، أو لوحَت
توقف ، كما أهوى ، لينفصح لى مجال عبث ومجون ؟

لقد امتد غيابك شهرين طويلين ، لم يهدأ « للهاتف »
فيهما صليل وعويل ، وما الصوت الذى يتردد منه إلا صوت
صاحبتك ، التى تنزل من نفسك منزلة الصديق المؤتمن الوفى .
أكانت ترتصد لى ، وتموه على ، لتضعنى موضع اختبار

قاس ، وامتحان عصيب . . . ؟

أكانت تتشم ريح الحياة ، لتقدم لك كشف الحساب الختامى ؟

أهذه وصيتك إليها قبل المغيب . . . ؟

أم كان ذلك صنيعاً عمدت إليه لأمر تخفينه . . . ؟

أأرادت أن تستلججى ، حتى أجد عندها الصدر الحنون
ساعة يعوزنى إلى الراحة سبيل . . . ؟

الافتراض الأول أحق بالقبول والتصديق .

ليطمئن قلبك ولتهدأ نفسك !

لقد أنفذت صديقتك ما طلب منها أن تؤديه ، بذمة
وأمانة وامتنال .

كانت رائعة في الدور الذي قامت به .

أتجحدين إلى هذا المدى حدة ذكائى وشدة فطنتى ؟

أما كان الأجدر بك أن تدبرى حيلة أوفر التواء ، وأكثر

تعقيداً ، تموهين بها على ؟

أحسبنتى ساذج الفهم ، قاصر الإدراك ، فقيراً إلى دقة

حس ، ولطف إلهام ؟

يقينى : أن صديقتك ما كانت إلا الطعم الذى أدليت به لى

من شصك العتى ، تبغين به التعرف والتكشف والاستخبار .

أنتكرين خطر تلك التجربة ، وما عسى أن ينجم عنها من

نزق وجماح ؟

دعينا نتخيل — جدلاً — أن الفريسة لم تفتن إلى ما بيئت

لها الخطة من تدبير طائش غرير . . .

هـي أن الفريسة وقعت في الشرك الذى نصب لها ، صريعة

هوى مشبوب ، لا حيلة لها فيه . . . !

ولنطلق تخيالنا العنان ، نفترض أن الصائد استهواه ساعة

الشواء رائحة الصيد الشهى ، فائنئى يقضم منه قضبات مريثة

هنيئة يستمتع بها ويستلذ .

أينا نخلق باللام ومر العتاب ؟

الصائد . . . ؟

الفريسة ؟

أم المدبر الألعى الفطين . . . ؟

أما علمت أن اللاعب بالنار لا يأمن أن يصيبه منها شواظ ... !
الرجل في ظنك خداع أثيم ، إن أرخى له الحبل جمع يستطيب
العبيث دون أن يصد نزوات نفسه ويصون العهد لأليفه الصنى .
أما أنا فاعتقدت أن الزوجة ما هي إلا جلاد عنيد ،
لا يفتأ يسلط على رأس الزوج سيفاً مرهفاً ، يحد به من حريته ، وأنه
لا يملك إزاء محنته تلك إلا أن يمنح إلى مخاتلة ومخادعة وتضليل .
لعلك تدركين إذن سر ما أصارحك به من اعتراف وإقرار ...
لقد كنتُ لك عوناً على السفر ، إذ كان يداعبنى أمل
الظفر بفترة حرية وانطلاق ، وأنت غائبة في مناك البعيد .
أنا السجين الذى بشروه برحيل سجانه عنه ، فظن أنه
سينعم حتماً بحياة بهيجة لا يشوبها حرمان وكبت .
تمثلت لى يومئذ القيود وقد ذابت ، والسدود وقد انهارت ،
وانفسح أمامى الطريق للدعة والترنوع لا رقيب ولا حسيب .
فلتعلمى ما كان منى أثناء غيابك الطويل .
ما بدأت عجلة الأيام تسير بى ، وقد غاب وجهك عنى ،

ونخلا لى الجوى وحدى ، حتى حاصرتنى كآبة ، وداخلى هم ،
ولعبت بى حيرة ، فألفيتنى أنطوى على نفسى ، وأنسج حولى
قيداً من فولاذ ألبأ إليه وأحتفى به .

وارتددت إلى عشنا الخاوى أوصد بابيه على ، لا أعيش غير
طيفك الخائى أستدنى منه لنفسى الكايبية ضوء الرجاء ، وشعاع الأمل .
وانكفأت أتساءل : أين الانطلاق الذى كنت أتطلع
إليه وأحلم به ؟

رحيلك كشف لى فجراً جديداً لم أعهده !
ما كنت أحسب أن العيش بدونك له طعم كريبه ، أتأبأه
وأفقر منه .

أمنكرة أنت على السجين إن هو خرج إلى النور ، والتقى
بالهواء ، أن يعاوده إلى محبسه حنين وإلى سجانته شوق ؟
أمنكرة أنت على الخمور الذى نهكه الشراب ، وهرج به ،
أن يتفقد الكأس لينهل منها ويعب ؟

أمنكرة أنت من العاكف على درس وكتاب ألا يفرح
بما يتاح له من راحة وجمام ، وإنما يراجع ما عكف عليه
لا تطيب نفسه بسواه ؟

أنت سجانى ، وأنت خمري وكأسى ، وأنت كتابى ودرسى ،

وإني لمتطلع إليك ، ومؤنس بك في محضرك ومغيبك على السواء !
 في الصيف نتأذى بحر الشمس ، فإن توارت عنا بالحجاب
 في غمام الشتاء الدكناء ، ترقبنا منها الشعاع واستجدينا الدفء !
 أغاب عنك أنك حوآئى . . . ؟
 من أضلاعى خلقت ، فما بغيرك يستم لي خلق ، ولا يكتمل
 كيان .

عودى إلى .

عودى ، لألتقى في سمائك بالحرية ، والانطلاق .

عودى ، أراجع معك العيش البهى .

عودى . . . عودى ، فقد انكشفت لي حقيقة أمرى ،
 واستبان لعينى السر الخفى .

* * *

كانت الزوجة جالسة عن كتب من جهاز التسجيل ،
 تستمتع بنبرات ذلك الاعتراف المستفيض ، يترنم به الشريط
 فى هدوء وأناة ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة الرضا ، وتبلورت
 فى عينيها المكحولتين دموع النشوة والزهو والاعتزاز .
 وما يكاد الشريط الناطق يتم دورته ، وينقطع عن إنشاده
 الحلو ، حتى تستأنف الزوجة الاستماع إليه بشوق جديد .

ضباط الإيقاع

جارى الذى يقطن الشقة التى أطل عليها فى البيت المقابل
لمخانا رجل وسيم الطلعة ، ضامر العود ، بائن الطول ، فهو فى
مظهره هذا ، ولا غرو ، صنو الأسبانى دونكشوت بعثته
الأسطورة من بين دفتيها ، ممتشقاً ، عوضاً عن السيف والرمح ،
عصا رشيقة يتكى عليها ، ومذبة خصيبة يهش بها على هوام
الطريق .

لقد تخطى جارى ، بفضل الله ، عامه الأربعين دون أن
ينبه ذكره ، ويتألق نجمه ، وقد طوف مبكراً بأبواب الوظائف
يطرقها ، بعد أن أقصته معاهد الدرس ، ولما ينهل من أفاويق
العلم ، نهلة ظامئ .

وأصبح ذات يوم ، حبيس حجرة بالطبقة الأرضية من
مبنى حكومى مضعضع ، ليس فيها بصيص من نهار ، يضيئها
مصباح شعبيح عكر ، وفى أرجائها تتكدس أضاميم منتفخة ،
وأضابير تربة ، وكل إليه تنظيمها وتصنيفها وضبط ما حوته

ميزقها في دفتر عريض ، جثم على مكتب أعرج ، خصص
له ، فأسندوه إلى الحائط كيلا يهوى إلى الأرض كومة هامدة .
وظيفة ، أعلى الله قدرك ، خاملة الشأن ، مطمورة الذكر ،
جعل جاري يغالب بها الزمن ، فلان أضيف أجره الشهري إلى
دخل يأتيه من منزل كهل ، ورثه عن إحدى عماته ، ساغت له ،
مع فاتحة كل شهر ، حياة هائلة ، وعيش ميسور .

بيد أن الأقدار التي أمسكت بتلابيبه ، تضمن عليه
بالشهرة والمجد ، خصته في سماحة ، بدوق رفيع ، وحس
مرهف ، وخیال خصيب ، وتلك على غير شك ، خصائص
الفنان الأصيل .

هكذا توافرت له شقة أنيقة الرياش ، رشيقة الأثاث ،
نالت منه الحذب والعطف ، فبسط كفه ، يكفل لها الوسامة
والتأنق ، متجنباً وسائل التجميل الصاخب ، والزينة الصارخة .

لم تكن شقيقته مشغلته التي تملك عليه وقته وحسب ،
بل استهواه الفن في شتى مظاهره ونواحيه من أدب وتصوير
ونحت ، أما الموسيقى فلكت عليه أقطار نفسه ، تملى عليه
كما تملى الغانية على صاحبها ، ما تصبو إليه من رغب ، فأفرد
لها حجرة أطلق عليها « كعبة الإلهام » خصها بما تستوجبه الألحان



من آلات الطرب والرصد والتدوين حتى تمكنه إن هي شددت
في محرابها ، من معاشرة الأنغام أجل معاشرة ، ومن ثم
تطاوالت من « كعبة الإلهام » أسلاك كهربية ، زاهية اللون ،
تحوّت في الردهات بعودها اللولبي ، ملتحمة بمضخمات
للصوت ، زانت جنبات الشقة بوجهها الأجرد المصقول ،
لتهدى إلى جارى الأصوات ، أينما حل ، في سهولة ويسر .

فكان يتراءى في المستشرف الرحيب ، عند الأصيل ، على
مقعده الأثير ، وبين يديه قلدح القهوة يرشف منه كأنما يشيع
قرص الشمس وقد تمايل في الأفق منحدرًا إلى مغيب ، على
رنين الألحان الخوالد ، تتناهى إليه من « كعبة الإلهام » وكأنه
كاهن مصر الأعظم يزف إلى « رع » رب الأرباب ، أناشيد
الكهنة ، وتسابيح العابدين .

إن نزعات جارى كما تشهد بسيطة هينة ، وعلى الرغم من
هذه البساطة الوداعة ، لم آلفه إلا دائم الشحوب ، محفى الهامة ،
مكفهر الوجه ، لا تفارق فيه بسمه يائسة ، ثم عن نفس
حزينة ، تختزن شجاها كما يختزن الإناء بخار الماء الفوار .

وإن أنت فتشت في حياة الرجل ، هدتك فطنتك ، دون
مواربة وعناء ، إلى خط ممدود ، لا يتنكب عنه جارى

ولا يجيد ، فإن تمتعت الشمس ، ولاح النهار ، ألفت باب
شفته ينفرج عنه ؛ أبرز ما فيه بزة أنيقة ، وبنيقة منشاة طوقت
عنقه ، يطيف بها رباط للرقبة ، هادئ اللون ، أحكم عقدته ،
فبرزت تحتل وسط البنيقة ، في تألق ، مضية عليه مزاجاً من
وسامة وبهاء .

ويتوخى جارى الطريق ، في خطا وثيدة ، متباعداً عن
الزحمة ، يتوكأ على عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ،
وعلى فؤديه يستوى طربوش زاهى اللون ، على حين تتشاغل
يسراه بمذنبته ذات الذيل الخصب يلوح بها عن يمين وشمال .

وما إن ينتصف النهار ، وينقضى وقت العمل ، حتى
يتلقاه الحى مع حشد العائدين ، فلا يلبث أن يغلغل قلبه باب
شفته لا يريمها حتى يحين صباح ، فلا أجده سوى النافذة
أُتطلع منها إليه ، إذ دأب الرجل على أن يدع مصراع نافذته
مفتوحاً ، ليستقبل بريق النهار ، فإن اتفق له أن لحنى وهو
منصرف إلى بعض شواغله المنزلية يصرفها ، توقف يبتسم
ويحيى بانحناءة من رأسه دون أن يجرى بيننا حديث ، فلا يسعى
إلا أن أبادله الابتسام وأن أرد التحية بمثلها ، ولا أعم أن أرتد
عن النافذة فى استحياء .

وسرعان ما ترسل على سمعى أصداء شجية لألحان رشيقة ،
تجتذبنى إلى النافذة ، محرّكة منى كوامن الشجون والأحاسيس ،
فأستلقى على مقعد مجنح وثير ، أتسمع النغم فى نشوة وشغف ،
وأنظارى فى شقة جارى هائمة ترصده ، فإذا هو مسترخ على
متكأ عريض ، يجتذب الدخان من غليونه ، وبين يديه كتاب
يطالعه ، وقد أدخله إلى سكينه يساير الألحان فى لذة واستمتاع .
على هذه الوتيرة كان جارى يختم أمسيته بل أماسيه ،
التي طالما شاطرته إياها .

وشدما كنت توافاً إلى أن تربطنى بجارى هذا أواصر
تعارف ومودة ، فأنا به معجب ، فلا يفوتك أنى ما زلت فى
شرح الشباب ، يستهوئنى كل ما فيه تألق وبريق ، ولا يغرب
عنك أننى بالموسيقى جلد مشغوف ، أوطد العزم أن أقتحم
ميدانها أثبت فيه قدى ، وأفوز منه بمكان مرموق .
ويوماً مثلت إلى النافذة ، وفى يدى مزمар ، أنا حديث
عهد به ، أتدرب على النفخ فيه ، مشغولاً بالنص الموسيقى ،
أفك منه رموزاً وطلاسم ، تناثرت بين سطورها حصصيات
تغص بها عيني .

وباغتنى صوت رنخيم يهمس لى فى تودد :

ما شاء الله . . . ما شاء الله .

ورفعت رأسى ، منحياً المزمار عن شفتى ، أتبين ،
فابتدرنى جارى ، من نافذته ، بسؤاله :

أمغرم أنت بالموسيقى إلى هذا الحد يا عزيزى ؟
وأجيبته على الفور ، تشوب صوته مسحة الحجل :
كل الإغرام يا سيدى .

— أطل عهدك بالتدرب على النفخ فى المزمار الذى بين يديك ؟
— إنى بالمزمار حديث عهد يا سيدى . . . لا أحسن
الصفير بعد .

— أتجد التدريب عليه صعباً عسيراً ؟
— أصعب وأعسر مما تخيلت وحسبت .
وتوقف عن الكلام ، يتلاعب بغليونه وكأنه يدبر أمراً ،
ثم نطق فى صوته المنغم يقول :

ألك رغبة فى حضور حفل موسيقى ، تشهد فيه كيف
يساس المزمار ، وكيف يغرد تغريده الشجى ؟
فتشاغلت بالمزمار ، أوارى استحيائى ، ووقفت حائراً
لا أنطق ، فسمعته يقول فى تعاطف ولين :
لم تجب عن سؤالى . . . أهلك رغبة فى حضور الحفل ؟

فبرقت عيناي وأنا أجيبه :

كل الرغبة يا سيدى .

— ما رأيك إن أنا دعوتك إلى الحفل بعد غد . . . أأطمع

في صحبتك والائتناس بك ؟

— عفواً يا سيدى . . . بل أنا المتشرف بما تدعونى إليه .

— سأدعوك ، ولكن لى عليك شرط .

فتطلعت إليه والبغته تعقد لسانى ، أقول :

وما الشرط يا سيدى ؟

أن تكف عن مخاطبتي على هذا النحو من التحفظ والكلفة .

— إرادتك يا سى . . .

وأسكتنى بإشارة من يده ، ثم قال فى تضاحك ، وهو

يمط شفتيه :

— لقد تم الاتفاق . . . أليس كذلك ؟ . . . لنا لقاء بعد

غد . . . سعدت أمسينتك .

ثم أوما برأسه إيماءته المألوفة ، وتباعد عن النافذة ، تغيبه

خطاه ، على حين أقبلت على المزمار أحتضنه فى تودد ،

وأثواب من فرح ، متطلق الأسارير .

ولما أخذ الجهد منى ، ارتفعت على المقعد مبهور الأنفاس ،
وما عتمت شفتاى أن التحمتا بالمزمار ، فانبعث منه صفير
مهوش ، يعربد فى الحجرة ، وكأنه صيحات الصبية وهم منصرفون
إلى عبثهم يمرحون .

وحل موعد الحفل .

وبرزنا أنا وصديق الجار إلى المسرح الكبير .
وضمننا الصف الأول إليه ، نحتل منه أكرم مقام ،
فلا يعوق المسرح عن أنظارنا عائق .

وانصرف صديق يرقب الموسيقيين على منصة المسرح ،
وقد تشاغل كل منهم بمعزفه يتفحصه ويضبطه ، ويعده الإعداد
التام ، ريثما يبدأ العزف ، فاضطربت القاعة بدندنات سقيمة ،
تفتقر إلى يد حازمة تتحكم فى فوضاها ، وتحسم ما سادها من
تنافر وشقاق .

ويطن فى البهو صليل جرس .

وتتخافت الأنوار وتنكمش .

ويندلع من أقصى القاعة نور باهر ، وإذا هو يهبط
نسجاً من الأشعة على المسرح ، كأنه قرص الشمس
الوهاج يلتقى على الكون تحية الإصباح ، فتتبدى منصة

المسرح ماسة فريدة تضيئ وتألّق .

ولا ينقضى بنا كبير وقت حتى ينفرج نسج الأشعة عن « ضابط الإيقاع » يفرق سبيله بين مقاعد العازفين ، تهديه خطاه النشيطة إلى منصة القيادة ، متأنقاً في لباس السمرة ، فانبرى صديقي يضرب كفيه في حماس ، ولم تلبث أن ضجعت القاعة في إثره بعاصفة من تصفيق ، فانهى القائد من فوق منصبه انحناءة رشيقة ، يرد بها التحية ، ثم اعتدل يواجه حشد العازفين ، ترتفع يمينه بعصا القيادة ، فتعلقت به أنظار الموسيقيين ، تنتظر الأمر منه في انتباه ، على حين انصرف هو إلى أوراقه يجرى عليها عينيه ، ويجمع في رأسه شوارد النغم . ويسود القاعة سكون ساينغ .

وتصدر من القائد الإشارة ، وتتحرك الآلات ملهية النداء ، وتسيل الأنغام محكمة البنيان يؤازر بعضها بعضاً في تآلف وتعاطف وانسجام .

ولا يفتأ جارى الصديق مشدوداً إلى مقعده ، تنعقد أنظاره بعصا القيادة وهي غادية رالجة بين الآلات توقف تلك وتنيم تلك ، آنأ هي ثائرة تستصرخ الصنوج ، وتقرع الطبول ، وتعنف بالأصوات في صلصلة وقعقة وضجيج ، كأنما الرعود

تصطفق ، وأنا هي مسالمة تنجح إلى تلاطف وتعاطف ولين ،
 فترق الألحان وتخف ، كأنها وسوسة الماء أو همسات النسيم ،
 تنساب بين الحمائل والمروج ، فيشدو الكمان بصوته الحنون ،
 ينفي في عذوبة لحنه ، عصف الرياح ، واصطفاق الرعود .
 ولا يفوتك أن تأخذ ضابط الأنغام ، من فوق منصته ،
 لا يستقر ولا يهدأ ، يشرب ويتقاصر ، يشور ويموج ، يسالم
 ويلالين وفق ما تمليه الألحان .

وعرضت منى التفاتة إلى جارى الصديق ، فالفيتها يتطلع
 إلى « ضابط الإيقاع » تطلع الوثني إلى صنمه المعبود في إكبار
 وخشوع ، ويده تحاكي تلويحات عصا القيادة مطاوعة
 في طرب إيقاع النغم ، وقد التمعت عيناه ، وتورد خدها ،
 فتلاشي شحوبه المألوف ، ونضج محياه بالبشر والإشراق .

وما إن انتهى العزف الختامى حتى انبعث جارى يضعج
 بالتصفيق ملوحاً بيديه ، ويصيح في احتياج صيحات المديح والثناء .
 وزايلنا القاعة إلى هو المسرح الكبير نستمرى صدى
 الألحان ، ومال على ، ونحن في منصرفنا ، يقول والحماس
 باد عليه :

البرنامج رائع . . . والأداء أروع . . . أما « ضابط

الإيقاع » فإنه ، حفظه الله ، فد استنبط نزعات المؤلف ومقاصده ، فساس الألحان عن فهم عميق ، ودراية واسعة ، جعلته ، ولا ريب ، يكفل سمو الإنشاد وبراعة الشدو .

وامتد الحديث بيننا وتشعب ، حتى إننا لم نشعر بوحشة الطريق في مثل هذه الساعة الواغلة من الليل ، وشارفنا الحى الذى نسكنه ، فشد صديق الجار على يدى ونحن نفترق ، يقول : الحديث له بقية . . . أنا فى انتظارك عصر غد . . . عندى . . . فى شقتى . . . سوف أسمعك من روائع الألحان ما يطربك . . . هيا ، لقد تأخر بنا الوقت . . . لا أريد أن أثقل عليك . . . إلى غد .

وفى أصيل الغد ، مثلت فى « كعبة الإلهام » أطوف بها مؤنساً بما ضمته إليها من طرف والطف . وراعنى فيما راعنى ، عصا للقيادة ، رقدت بعودها المشيق على حامل معدنى دقيق ، فوق مائدة مستديرة ، تحف بها دى من الخزف ، تمثل حشد الموسيقيين فى جوقة متكاملة العدة والعتاد ، يتوسطهم مصنف موسيقى ، لمقطوعة مأنوسة .

فوقفت أزجى إعجابى لجارى الصديق ، مطرباً فيه حسن الإخراج ، فاضطرب فى وقفته ، وانكب على عصا القيادة ينزعهما

عن حاملها المعدنى ، وأمسك بها يضغط عليها فى رفق ، متشاغلا بها ، ثم أقبل على الدمى الخزفية يرعاها فى نظرة حانية وهو يغمغم :
هذه هى دنيائى يا عزيزى الصديق . . . دنيا الأنعام
والألحان . . . إنها فى هذه الصبور المتواضعة تحقق حلم حياتى
العريض .

فقلت له يملؤنى الإعجاب والتجسس :
يا له من عالم عزيز على . . . محبب لى
وتهد صديقى الجار تهلة جياشة ، وهو يتابع قوله راعش
الصوت :

لقد عشقت أنا الآخر هذا العالم الرحيب ، ووددت أن
أصبح فيه علماً من أعلامه النابهين .
— وما الذى يحجبك عنه ؟

— أبى يا عزيزى الصديق . . . ما كاد ، سامحه الله وصفا
عنه ، يقف على رغبى فى الالتحاق بمعهد الموسيقى ، أستكمل
فيه دراستى العالية ، حتى استشاط غضباً يكرهنى على إذعان
وسكوت ، على حين أنخذ يرسم لى الطريق الذى وجب على
أن أسلكه ، ويشق آفاق حياتى ، فيرانى طبيباً مرموق القدر ،
يشار إليه إشارة السمو والإكبار . . . أما أن أصبح صانع

أنغام فهذا ، على حسب حدسه ، مضلة وغواية ، معبثة
 ونخسارة وضياح ، لن يرتضيها لى مهنة يتبناها ويباركها . . .
 وطال بنا النقاش وتشعب . . . وأخيراً احتد بنا الجدل يجرنا إلى
 مفاصلة وفراق . . . فأخليت له وجه البيت ، ورحلت إلى عمه لى ،
 أتق بها ، أطلب عندها الطمأنينة والعون . . . فطبيت خاطرى ،
 وكانت رقيقة القلب عطوفاً . . . ووعدت لى ، فى فيض من إعزاز
 ومحبة ، التوسط لدى أبى . . . ولما سمع لها ، علا صوته مههدداً
 إياها بقطيعة وشقاق إن هى لم تكف عن هذا الهراء المقيت . . .
 وأقسم ، وما أغلظ قسمه ، إنه لن يرضى عنى ، ولن يقبلنى
 تحت سقفه طالما تردد له فى الحياة أنفاس ، وإن سعت أسف
 التراب عند قدميه . . . ورجعت عمى من لدنه مبتتسة تسع
 دمع الحبيبة والإخفاق ، وتدعونى إلى تعجلد وصبر . . . وضاق
 لى رحاب الحياة . . . فانقطعت عن الدرس متذمراً ، أرفع
 راية العصيان ، وانيرت أوصل الحياة ، وأتكسب العيش ،
 دون أن تمتد يدى إلى معونة أحد .

والتحقت بالحكومة ، أضرب فى مجاهلها ، كأنى جواب
 آفاق ، أخطأ الطريق المرسوم ، فتاهت به خطاه فى أحراج
 غير مطروقة ، فتناساه الناس ، حتى تناسى نفسه هو الآخر ،

فلازم يأسه ، وانقطع عن الحياة يستمرى العزلة والتفرد ،
مستكملاً في تعثر ، ما تبقى له من أيام . . . وما إن توافرت
لدى بقية من مال حتى عكفت على « كعبة الإلهام » أشيدها
مثابة أتصيد فيها لحن حياتي الضائع ، ومناحة أسكب فيها الدمع
على حلمي العريض الذي وسده أبيض التراب في عناد .

وانقطع جاري الصديق عن إنشاده ، يزدرد ريقه ،
وكأن حنجرته شرقت بالعبارات ، فسعل يواصل حديثه ، مبهور
النبرة ، متقطع الأنفاس ، وهو يتقدم من المائدة المستديرة ،
يعيد عصا القيادة إلى حاملها المعدني ، وقد ران عليه تخاذل
وشحوب ، وسمعته يقول خافض الصوت :

مالي أراي أحدثك هذا الحديث الكدر . . . هيا بنا إلى
المستشف . . . الشاي معد . . . أخشى أن يكون قلد برد
لطول الانتظار .

وضمنا المستشف نحتسى أقداح الشاي ، وعلى أسماعنا
ترسل الأنغام شجية حنوناً ، جادت بها علينا « كعبة الإلهام » ،
فانسرح جاري الصديق مغرقاً في صمت ، يرنو إلى قدحه مليئاً
وقد اكفهر وجهه ، وشاهت خلقتة ، واستولى عليه تظامن
وقنوط ، كأنما هو الشجرة العجفاء أثقلها مر السنين ، فجف

عودها ، وتجمعت قشرتها ، تكاد تنقصف هاوية ، تودع الحياة .

فأمسكت بيده أسأله :

أأنت بخير ؟

فضغط يدي يهمهم في لهجة وادعة :

لا تنزعج . . . أنا بخير .

فودعته ، ولحأت إلى بيتي ، برأ بما وعيت من حديث كتيب ، أرى أباه في ثورة من غضبي ، بالغفلة والجهاالة والبله .

وتوالت أيام .

وظلت نوافذ جاري مغلقة على غير المألوف .

وساورتني في شأنه ظنون .

وذات عشية ، جاءتنى ، وأنا جالس إلى المزمار أتدرب عليه ، أصوات موسيقية تجيش بالأنغام في خشونة وغلظة ، وتجار بالألحان في شدة وصلابة ، كأنما هي ضربات المعاول على صخر أصم .

فهرعت إلى النافذة أتشوف وأتكشف ، فصدمت بجاري الصديق في « كعبة الإلهام » يلوح بعصا القيادة ، وقد اعتلى

مقعداً ، وأقبل على الدمي تلك الأقزام الخزفية ، كأنما غدت فوق المائدة المستديرة ، عمالقة العازفين على منصة المسرح ، تستجيب إلى تلويحاته في طوعية ، كلما حرك عصاه ، يضرب بها الهواء على إيقاع الأنغام ، ترددها آلة التسجيل في أقصى الحجر ، فإن هي تراخت وشففت ، سكنت إيماءاته ورقت ، وإن اشتدت وعصفت هاج وماج ، والعصا في مهب الأنغام حائرة راعشة ، تغدو وتروح في اضطراب كأنها أصيبت بمس محموم .

وبغثة كف جارى الصديق عن التلويح ، تستبد به نوبة من نشيج ، فنجى العصا يقصف ظهرها ، وراغ إلى الدمي الخزفية يبطش بها ، وامتدت يده إلى المصنف الموسيقى يمزقه شر تمزيق ، وتشعثت حركاته ، واضطرب المقعد من تحته ، واختل منه التوازن ، فانبسط على الأرض بعوده السمهرى ، واستقر في سقطته دون حراك ، يشخب الدم من جرح أصاب جبهته ، على حين ظلت الألحان تتدافع عنيفة صاخبة ، تنكر في ثورة عارمة ، ما حل بعشيرها ، في الحياة ، من عسف الجحود والإخفاق .

إفلاس

كان « محسن العنز » ملقى على فراشه في حجرته الخربة
يعانى تباريح الإفلاس والعسر .

لقد أفقر جيبه إلا من قروش عشرين ، هى الصفوة
المتخلفة من الجنيهاات العشرة التى يتقاضاها من عمله الحكومى فى
خاتمة كل شهر .

كان ممدوداً على سريريه فى خمول ، يتجرع على مضض
كأس السأم ، إذ حبس نفسه فى ذلك القمقم المعتم ، موفراً
على جيبه نفقات لهوه التى تمتص القدر الأوفر من دخله الضئيل .
إن الليالى كانت تمر عليه وكأنها قرون طوال ، بل كأنها
كابوس جاثم يتمثل فيه حطام حياته الخاوية .

وتقلب على الفراش يشعل لفافة تبغ ، وما لبث أن انسرح
يعب أنفاسها مليئاً ، يجاهد يائساً أن يعيد السكينة إلى نفسه الخائرة .
ولما لم يفلح ، صدف عن مضجعه يلدع حجرته فى خطأ
متخلعة ، كارهأ أن يكون ذلك القمقم العفن مجاله الأوحـد

الذى يستني إليه ويتنفس فيه أنفاس الحياة .
 إنه يختنق . . . ولأنه ليحسن روحه تحتدم بين جنبيه ،
 وتحته على توثب وانطلاق فى رحاب من اللهو عراض .
 فوق مقدوره أن يحجب عن أنظاره بعد الساعة ما فى الدنيا
 الواسعة من مباحج والطاق .
 وتفلتت منه نظرة إلى الحارة وهو عن كتب من النافذة
 فألفاها تملور بالحركة وتمرح فى الأضواء .
 وما عثم أن تراءت له فى أقصى الحارة قهوة « السرور
 والأمل » أكثر ما تكون لإغراء ، فقد تدلى من جبينها مصباح
 نبط يتوهج ، وقد أخذ فى زهو يبعثر بسماته المشرقة يمنة ويسرة
 كلما هزته خطرات النسيم .
 ولم تكن أذناه بأدنى حظاً من ناظره ، فقد ترسلت
 عليهما أنغام شجية ، من مذيع القهوة ، فحركت فى نفسه
 كوامن المشاعر ، فانبعث ينقر حافة النافذة بأصابعه لاهياً
 يساير الإيقاع .
 ومثل العتر يتمطى باسطاً أوصاله الخاملة ، وقد فرطت
 منه تثاروبة عميقة كأنما تزيج عنه التبلد والجمود .
 ماذا يضيره إن انغمس فى غمار هذا النشاط البهيج ؟

قدح القهوة لن يبتز من جيبه إلا قرشاً ، وإن تمادى في عبثه فقرش آخر يؤديه لقاء لعبة الرد .
ومن يدري ؟ ربما يعلو حظه فيربح من المراهنة عوض ما يدفع في القهوة شهراً أو يزيد .
وما هي إلا أن زایل قمقمه وخرج إلى الشارع يلتقي بالحياة فتترنح أعطافه ترنح الرضا والاستبشار .
وكلما نشطت خطاه تدانيه من القهوة توضححت له عامرة الأرجاء يسودها نشاط متجدد .
أين هي من حجرته المتفردة وقد لفظها البيت على سطحه نائياً بها عن أطايب العيش .
القهوة ولا جدل هيئة المنظر ، شرقه البلدران بأبحرة لفائف التبغ والراجيل تتعقد في سمائها كغمامات زرقاء .
وهي فوق هذا مجتمع أسقاط الحارة من الشبان المتسكعين يختلفون إليها ما غابت الشمس وسجا الليل ، لا مشغلة لهم إلا المشاكسة والشجار ، وقد تتعالى أصواتهم جهورية الجرس لا تحسن إلا التفوه بالتهافت من القول والتافه من الحديث .
ما كان « لحسن العتر » أن يلجأ إلى مثل هذا المنتدى الرخيص لو أن جيبه المفلس عامر بجنيناته العشرة .

أما يكفيه الليلة أن يأنس بذلك المذيع وهو يغرد تغريده
المانوس والسمار من حوله يرددون الآهات كلما هب عليهم نغم
حنون .

أما يكفيه منظر خادم القهوة وهو يخب في أطماره البالية
يخوض طريقته بين المناضد ، يحيب هذا إلى مطلبه وينحني على
ذلك يسأله ما يطلب ، وإذا ما رفع عقيرته بالطلبات ، مطط
حروف كلماته في ترنيم يلد للأسماع .

أما تكفيه هيئة المعلم «سرور» صاحب القهوة وهو مستديك
على مقعده كالصقر المجنح يتابع غلامه في بالغ من الحرص
محصياً عليه الحركة ، وقد استوت أمامه النارجيلة تتوهج على
رأسها الأغبر قطع الجمر كلما جذب إلى صدره منها نفساً ،
وكرشه المنتفخة تترنح على فخذه في بدانة وترهل .

كل ما في القهوة يدخل عليه الرضا والسرور .
وجلس « العتر » يشغل نفسه بجريدة مسائية أهملها أحد
السمار بعد أن اشتف منها عصارة الأخبار ، فالتى بها حيث
هى على المنضدة ورحل .

وتناولها صاحبنا يقلب صفحاتها ملولاً ، وعيناه تتواثبان
على عناوينها البارزة دون أن يشغل باله بخبايا السطور ، حتى

تعثرت آخر المطاف بعنوان ضخم لقصة أثارت فضواحه ، وألهبت فيه حماسة القراءة ، إذ كان ممن يستمويهم الأدب وخاصة القصصى منه ، وفوق ذلك فصاحب القصة علم من أعلامها ، وخلدن له ، درسا فى مدرسة مشتركة وهما فى ميعة الشباب .

لقد حمل كل من الزميلين لصاحبه ذكريات مشحونة بمحقد وبغضاء ، لما نهبت بينهما من تنافس على قلب امرأة : فتاة من فتيات الليل لا ضمير لها ولا قلب ، تهب حبها عطية ميسورة لمن يغدق عليها المال فى سماحة وسخاء .
ظفر بها العثر على منافسه الأديب .

لم تكن الحيلة تعوزه .

إن أباه من هواة التحف الأصلاء ، له منها مجموعة فريدة تتناقل حديثها المحافل والمجتمعات .

وامتدت يد « العثر » تعبت بها ، فكان ينفق على غانيته ندى الكف بما يتوفر له من مال أبيه المملوك .

ولما افتضح أمره طرده أبوه من المنزل يمسك عنه ويضن عليه ، فتنقطعت به سبل العيش ، وتذكرت له الغانية ، وناصبته العدا .
وها هو ذا يصبح تافه الشأن مطمور السيرة يتكسب فى غير يسر .

ونشط « محسن العتر » يقرأ الصحيفة وعلى فمه تتموج بسمه شاحبة ثم عن حفيظة وغيظ . إن القصة تفيض بالأحداث المثيرة والمواقف العنيفة في أسلوب شائق ، وحبكة فنية وخيال خصب ، وسمو من تفكير .

وصفق « العتر » يطلب قدح قهوة ثم أشعل لفافة تبغ ، واسترخى في جلسته يتابع المطالعة .

والنبي « العتر » نفسه وسط زوبعة عارمة ، فريسة لغضب جامح ، وثورة عمياء .

تبين له أن صديقه الأديب قد عرج على الماضي يستخرج الحوادث السوالف من لفائفها ينمق بها قصته .

لقد أطلق اسمه على الشخصية الأولى كاملاً دون تبديل أو تعديل ، ووصفها بكل مرذول من النعوت ، فهي دنيئة المنبت ، نجيسة المقصد ، منطوية على شر .

وتحمل « العتر » في جلسته بعض على نواجذه .

كيف يزوج باسمه في قصة محورها الأول والأخير جريمة غش وخداع وتزوير ؟

هل ابتغى صديقه الأديب أن ينتقم منه معيداً إلى الحياة ما أسدلت عليه أستار النسيان ؟

كرامته أهدرت لا ريب . . . أهدرت على نحو مبتذل
لا يرتضيه حر .

لا أقل من أن يثور لشرفه المسفوح ، وكرامته الجريح .
وطوى الجريدة يدها في جيبه وفي نفسه عزم على قصاص .
ولعت في رأسه فكرة .

عليه بصديقه القزم « سعدون » وكيل المحامى . . . لا مرية
أنه واجد عنده السلاح القاتل الذى يبحث عنه .
عليه به دون إبطاء ، وإن كانت الصلة بينهما قد انقطعت
منذ وقت سلف ، إثر شجار هب بينهما ، كالإعصار الجارف ،
وهما يلعبان الورق ذات ليلة .

لقد تبين لـ « سعدون » أن صديقه « العتر » يخفى في كه
بعض الورق ، فإن خذله الحظ ولاحت الخسارة والهزيمة ،
استجدى كنه يطلب منه العون والتعويض .

تبين لـ « سعدون » أن صديقه مخادع محتال . . . لص غشاش .
لم يتمالك « سعدون » فنعت « العتر » بالمخادعة واللصوصية
على مرأى ومسمع من الأشهاد في صوت جهير كأنه هزيم الرعود .
وزجره « العتر » فلم يمثل بل تهادى يلعن ويسب في جرأة
وحماس .

وتظاهر «العترة» بالثورة دفاعاً عن شرفه ، وسرعان ما
نشبت بينهما شجار .

وشيع «العترة» القهوة في تلك الليلة المشثومة متورم
الأنف ، تظل لإحدى عينيه غمامة زرقاء .

صدف «العترة» عن قهوة «السرور والأمل» تهديه قدماه
إلى حارة مرتبة غير ممهودة بحى القلعة ، وصعدت به أربع
طبقات إلى حجرة تشبه الجحرم منزل متوحد يشرف على
خرائب ثلاث .

ومد ساعده إلى الباب ينقر عليه فى رفق ، ولما لم يُعجب
إلى ندائه احتدّ فى طرقة حتى وضع له من خلف الباب
الزجاجى شبح «سعدون» قادماً مترنح الخطو : عود متقاصر ،
وظهر مقوس يحمل بين كتفيه حذبة كأنها سنام بعير ، وقد
أمسك «ساهرة» عكرة الضوء، فيها شمعة ترنح ذبالتها من ضعف .
وانفرج الباب .

وتواجه الصديقان .

فعجل «سعدون» إلى مصراع الباب يوصده ، لولا أن مد
«العترة» قدمه يحول بين «سعدون» وما يريد .

وزأر القزم فى توقع يقول :

- ماذا تبغى . . . ليس لك مكان هنا . . . انصرف . . .
- ما بيننا انتهى . . . قطع إلى الأبد .
- ولاح « للعر » أن صديقه القزم مخمور تتلاعب برأسه الصهباء ، فاستبشر خيراً ، وواجهه في مسكنه يقول :
- ألا تمد يد العون إلى صديق مأزوم . . . في حاجة إليك ؟
- لا يهمنى . . ليس ثمة صداقة تربط بيننا .
- ألا تغفر له إساءته لك .
- لست الله لأغفر الذنب .
- وإن أذاك تائباً يطلب عندك العفو والصفح .
- الله وحده صاحب العفو .
- ألا تتذكر العيش والملح الذى تقاسمناه وأكلناه معاً .
- أتذكر أنك خلدتني . . خدعتني . . غررت بي . . .
- سلبت مالى . . . كفانى هذا القدر .
- وترنج « سعدون » فى وقفته وأوشك أن يتهاوى ، فخفف « العر » إليه يسنده ، وتناول منه « الساهرة » كيلا تتدلق فتندلع منها النار .
- لم يكن بالحجرة أثاث إلا متكأ من الخشب هزيل ، ومقعد تفسخت قوائمه وانتفشحت حواشيه ، فاتخذ « العر » لنفسه

مقاماً ، مخلصاً المتكأ لصديقه القزم .

ولما استوى « سعدون » فى مكانه ، واطمأن فى جلسته ، انبعث يبحث عن زجاجة الخمر ، وأقامها إلى فمه يعب منها ثم قدمها إلى صديقه « العتر » الذى كرع منها كرة مديدة ، فلما أحس بوقدة الشراب تسرى فى أوصاله ، أرجعها إلى صديقه القزم .

ولما ألفاها « سعدون » فارغة شهرها فى وجه صديقه وهو يجمجم فى صوته المخمور :

سوف أحطمها على رأسك وأنتهى منك . . . ما الذى ساقك إلى هنا تعكر صفو أنسى . . . هيا ، عليك بالبواب .

وغمغم « العتر » فى انكسار :
أهكذا يستقبل الصديق ١٢ . . .

— دعنى لزجاجتى هذه . . . كلانا صديق للآخر . . .

هيا . . . ارحل ، عجل وإلا هشمته على رأسك .

لم ينبس « العتر » ، وقصد النافذة يفتح وصاوصها ، فغزا الحجرة نسيم تشيع فيه أنفاس المساء ، ثم قفل إلى صديقه ببسط الجريدة بين يديه ويلوك تلك الكلمات بين شذقيه :

هذه هى التى دفعتنى إليك . . . ثمة ثار يؤخذ وشرف

يرد . . مسألة قانونية أود رأيك فيها .

ظل « سعدون » صامتاً كأنه يشحذ ذهنه مستوحياً الفكر .
كان رجلاً كريم الخلق ، صاحب مروءة وفضل ، إن هو
استشير في أمر نسي حقه وشمر عن ساعديه يسدى النصيح .
كيف يبخل برأى على مأزوم ويأبى الدفاع عن مهزوم ؟
أليس المحامى فى ساحة العدل جندياً وهب نفسه ووقف
علمه دفاعاً عن حق مهضوم .

وما « سعدون » القزم إلا ذلك الجندى الذى يساند العدالة
ويساعد القانون وينصر الحق .
وبعد لأى انعطاف على صديقه « العتر » يربت يده
ويسر إليه قوله :

ما الوقائع . . . على بها . . . اقتضب فى السرد . . .
كن واضحاً . . . أبرز موضوعك دون إسراف فى قول . . .
الاقتضاب خير دليل على الصدق .
وأذن « العتر » لما أمر به ، وتناول قصته فى إيجاز ،
و« سعدون » يسمع إليه بملء أذنيه .

فلما تزود بما أراد صدرت منه إشارة إلى صديقه يسكته .
وغاب صوت « العتر » وهو يردد قوله :

أكفأك ما سمعت ؟

— أو تحسبني غيباً لا أعى . . . حسبي منك إشارة أو
تلميح كي ألم في غمضة عين بخبيثة الأمر .
— ألسن على حق . . . طمئني حماك الله .

— التشهير واضح . . . سوء النية متوفر . . . خصمك
في قبضتنا . . . دعواك حتماً رابحة . . . غداً أكتب عريضة
الدعوى . . . وبعد غد أتقدم بها إلى القاضي أثار لك
وأقتصص . . . سأنتزع منه الحكم الذي ترصاه في الجلسة الأولى
ولا ريب . . . عول على . . . « سعدون » يعرف من أين
تؤكل الكتف .

وهتف « العتر » وقد لعبت برأسه الخمر :

نعم المدافع أنت !

واعتدل « سعدون » يحجب صديقه مغمماً :

لى شرط .

— شرطك مقبول على العين والرأس .

— ماذا يكون نصيبي ؟

— ماذا تعنى ؟

— الأتعاب !

— لك ما شئت . . .

— التعويض . . . نتقاسمه !

— اتفقنا .

— سجل ما قلت .

وسجل « العتر » ما أملاه القزم عليه في ورقة بالية قدمها له « سعدون » وبعد أن مهرها بإمضائه دسها « سعدون » في جيبه ؛ ثم انعطف الصديقان يتدارسان خطط الهجوم ويقرران تفاصيل المعركة ، وكلما شدد « سعدون » هجومه يكشف مواقع الضعف من خصمه انسرح « العتر » في تفكير يحصى الغم ويعد أوراق النقد وكأنها نجوم لوامع تهبط من السماء تغرقه في بحبوحة من العيش .

وسرعان ما نال الجهد من الصديقين فأنكفأ كل على صاحبه ، وما لبث أن تعالى في الحجرة غطيط على حين لاحت تباشير الفجر في الأفق تؤذن بمولود جديد ، وقد ارتسمت على قسما وجههما ابتسامة بلهاء تنبئ بما يتخايل في رأسيهما من أفكار ثراء عريض .

نور وهّاج

قصة سمعتها في صباى ، أعرضها عليك ، غير معنى
بتجويد أو تنميق ، إنما أنا أسوقها إليك في بساطتها كما وعيتها
منذ سنين .

صاحبها الأوحى ، غطريف من غطاريف الريف
الموسرين ، لم يكن يقبض يده عن مبرة ، ولا يحجبها عن فضل ،
فما فتى بابه مقصداً للعفاة السائلين ، يتحلقون عليه في كل
يوم ، راصدين السبيل .

إن هو أهلّ عليهم ، بذل يده بالعطايا والهبات ، لا يصرف
عنه أحداً منهم إلا عامر الكف ، ندى اللسان بالمدح والدعاء .
لقد أضحى غطريفنا ، على مد السنين ، نابه الذكر ،
تداول الألسن اسمه في أحاديثها ، حتى عرفته القرى النائية ،
في أحشاء الريف البعيد ، فاهتزت لكرمه ، تصدر إليه بضاعتها
من عفاة القوم ، كأنه المنارة المتألقة ، تهدى إليها في خضم
الحياة ، التائه والشريد .

ويوماً وفد على القرية وافد هو عنها غريب ، يطوى فى رداثه
طيف المنون ، إذ تفشى فيها وباء خبيث ، لا يرحم صغيراً
ولا كبيراً ، إلا استلبه من أهله ، كأنما يتقاضاهم ضريبة محتومة
الآداء ، فيشهدك كل يوم جدتاً رطباً جديداً ، تنضم جنباته
على رفات من أهل القرية عزيز .

لم يأل غطريفنا جهداً فى مواساة جيرته ، باذلاً لهم المؤن
والعقاقير ، حتى تغشته غاشية المرض ، فلزم داره ، صريع
الحمى ، ليستبين فيه نذير الفناء المحتوم : وجه شاحب مصفر ،
وصدر يعلو ويهبط ، وفم منفرج ، يتلمس أنفاس الهواء
لصدره المقرور .

وما إن دنت ساعته ، وحن أجله ، حتى صحا صحوة
الموت ، وثاب إليه وعيه ، فغمغم مثلهم الصوت :

اللهم هذا مصيرى المحتوم . . . فما مصير فقراى المحاويج ؟ !
ثم أغمض عينيه ، يجود بأنفاسه .

وصعدت روحه إلى بارئها ، تسكن جنة الخالدين ، ما فى
ذلك خلف ولا تكذيب .

هذا ما كانت تخوض فيه معارف الرجل ، وهم من وراء
نعشه ، يشيعونه إلى مقره الأخير .

ولغطينا الراحل ، خدين لازمه منذ الطفولة الباكرة ،
 إذ ضمتهما إليها مدرسة واحدة ، ومن ثم تواصلت بينهما وشائج
 ألفة ومودة ، ما زادتها الأيام إلا تأصلا وقوة .
 لم يكن بينهما سر مطوى ، أو خبر مستور ، فكلاهما ينفض
 جعبته لصاحبه في مصارحة وصدق .

وجلس الخدين في مأتم صديقه الراحل ، يتقبل فيه
 التعزية ، وقد انسرح به الفكر ، يرده إلى عهد الطفولة الالهية :
 واستبان له فناء المدرسة العتيد ، يفور ويمور بالتلاميذ ،
 وتبدى له غلامان لم يتخطيا العاشرة بعد ، كلاهما دائب التوثب
 والمرح ، وفي يد كل منهما قطعة من الحلوى يحشو بها فمه ،
 والأخذان من حولهما منصرفون إلى لهوهم يتصايحون و يتلاعبون .
 وما يعتم الناقوس أن يلدق دقائق معلومات ، هي إشارة منه إلى
 بدء الدراسة . فتخفت الحركة ، ويسود الفناء سكون ، ولا يلبث
 التلاميذ أن ينتظموا في سطور متساوية كأنهم جند مصفوف .
 وتصدر من ناظر المدرسة إيماءة ، يتحرك في إثرها ذلك
 الجمع ، صاعداً إلى فصول الدرس والتحصيل ، في نظام وخشوع .
 ويمتاز يوم الاثنين في هذه المدرسة على غيره من أيام
 الأسبوع بشرف عظيم ، ذلك أنه الموعد المضروب الذي تجتمع

فيه هبات الأريحيين من التلاميذ ، صدقة خالصة لوجه الله ، تبدل بالطوع ، فليس على من يحجم عنها من تريب ، وليس على من يقدم عليها من عنت .

كان لكل فصل رائد يجمع التبرعات ، في يده سبط مهندم صغير ، يتلقى فيه من أقرانه ما تسخو به أيديهم وتعود .

وكانت التبرعات تجمع عادة ، في درس الدين ، فما إن تسفر عمامة الشيخ « خير الله » على باب الفصل ، حتى يصدر أوامره بنجاية الصدقات ، فيطوف رائد الفصل ، بين أقرانه ، بالسبط يثقله بالمنح والهبات ، ثم يرتد إلى الشيخ « خير الله » ، يفرغ بين يديه ما اجتمع لديه من عطايا ، فيزيدها الشيخ بخمسة مليات ، هي فريضته التي آلى على نفسه أن يؤديها في الأسبوع بعد الأسبوع ، يجعلها قدوة حسنة ومثلاً يحتذى . وسرعان ما يصر النقود في منديل مخطط عريض يحكم عقده ، ويستوعبه صدر قبائه في عناية وحرص ، ومن ثم تبدأ الدراسة في نشطة ، وبأسطرة « سيدنا الشيخ » على أيدي المتخلفين من تلاميذه صولات وجولات .

إن الشيخ « خير الله » رجل صالح ، وواع بالخير ، مطبوع اللسان على ذلاقة وحسن بيان ، قصارى همه حض الناس على تقى وصلاح .

منطقه في ذلك هو منطق الدين الخفيف ، إذ لا سعادة في مجتمع ، يقوم على الأثرة والأنانية .

وكثيراً ما اقتطع من الدروس وقتاً ، يبسط فيه ما لصنائع المعروف من بركة ونفع ، مهيباً بأبنائه التلاميذ أن يقتصدوا في نفقات لهوهم ، ليقدموا مدخرهم حسبة لوجه الله ، كي يعين أسرة اغتال المرض عائلها أو كسيحاً التقت السيرة ساقه ، أو مقعداً لا قدرة له على تكسب وعمل . وما يزال مسهباً في عظاته حتى يختتمها وهو يمسح على وجهه ، بالقول المأثور : « الحسنه بعشر أمثالها » .

وما أكثر ما كان الصبي يخلو بالشيخ « خير الله » ، في غير أوقات الدرس ، يسأله في أمور الدين ، ويتفقه على يديه ، فما سنحت لتفكيره مسألة إلا شاوره فيها ، مستلهماً منه طريق الاستقامة والفلاح . وما بخل عليه الشيخ بشرح ولا ضمن بجواب ، متوخياً أن ينزل قوله من نفس الصبي منزلة الفهم والاقتناع . على هذا النحو جاء ذلك السؤال على لسان الصبي في وقفة مع الشيخ :

بني الإسلام على خمس ، فأياها أفضل عند الله وأمثل ؟
فهمهم الشيخ « خير الله » ، وهو يسبل جفنيه :

كلها عند الله سواء .

— أليست الصلاة أحق بالاتباع ؟

— الصلاة يا بنى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن
لا تنس الزكاة ، فهي للفرد تطهير والجموع مؤنة ومعونة
وإسعاد . . . طوبى لمن أدى الزكاة . . . جنة الخلد مأواه .

فتبرق عين الصبي قائلاً فى تشوق وحساس :

وما الجنة ؟

ويجيب الشيخ « خير الله » متخشع الصوت :

هى الدار الآمنة التى لا شقاء فيها ولا نصب .

— أقصر كبير هى ؟

— بل قصور فياحة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من
ألوان النعيم ، وأسباب المتاع ، ما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولن هى ؟

— لمن عمل صالحاً ، وآتى المال على حبه ، مسكيناً ،
ويتيماً ، وأسيراً .

وينصرف الصبي من حضرة الشيخ ، منتشى النفس ،
مشبوب الفؤاد ، تلوح له الجنة بما حوت من أطايب النعم ،

وكانها من خياله الساذج ، مدينة متراحية الجنبات ، تزخر بأبنية وقباب ، أحجارها من زمرد ، وأبوابها من ذهب ، تشقها أنهار ترفرف على حفافها الشجر محملة بbianc الثمر ، وعلى صفحة مائها المواج تنهذى زوارق مختلفة الشكول ، يمرح فيها أطفال كأنهم اللائى ، وينبعث منها شذو راقص طروب ، فما يعكر صفو راكبيها زنين كأجراس الدرس ، ولا مسطرة زاجرة ، ولا نظام صارم وقيود .

فلا يملك الصبي المفتون بأخيلة اللجنة إلا أن يعجل إلى خديته يناجيه بذات نفسه ، وهو يقول له :

ما أجمل اللجنة ، وما أطيب العيش فيها . . . فى مكتتك أن تنالها . . . صدقة طيبة ، كفيلة بأن تفسح لك فيها أكرم مكان . . . المأفون هو الذى لا يتخذ سبيله إلى الظفر بهذا المتاع المقيم ، مهما كلفه ذلك من سعى وجهد وحيلة .

وشغف الصبي بهذا الحديث ، فما لقي خديته يطارحه الكلام ، إلا كان للجنة فى تحاورهما حظ كبير .

وفى يوم الاثنين من أحد الأسابيع ، جأر الشيخ « خير الله » بجابيه أن يجمع الصدقة ، فتسارعت الأيدى تمطر السقط المهندم بقروش هينات ، إلا الصبي ، فكانت عطيته فى هذا اليوم

قطعة فضية قشبية السبك ، رفيعة القدر .
وتجلت القطعة الفضية بين القروش المطموسة الكابية ،
تلتمع كأنها قمر ساطع ، يزهر بنفسه ، ويتناول بلألائه على
كاسفات النجوم .

واهتز الصديق الرائد ، يبادل صاحبه نظرات عجب
وفخار ، فما أسرع أن أزاغ الصبي بصره ، يتشاغل عنه ،
وأطرق يعبث بصفحات كتابه ، محتقن الوجه .

لم يكد المنديل المخطط العريض يستقبل جباية اليوم ، حتى
انثنى الرائد على أذن «الشيخ» يهمس إليه ، وهو يوميئ طوراً إلى
قطعة النقود الرفيعة القدر ، وطوراً إلى الصبي الذي ما زال منكباً
على كتابه يعبث به ، مستطار الوجدان .

وما هي إلا أن سمع اسمه ينادى ، فأسرع واقفاً يلبي النداء ،
ناكس الرأس ، يتلاعب بحاشية كتابه ، وقد تخايلت على
حياه علائم استحياء .

وصدع الشيخ «خير الله» يقول :
ارفع رأسك يا بني ، فما الساعة ساعة خجل وتهيب . . .
من كانت أريحته هذه ، استحق موفور الثناء .
وبلغ الحماس بالشيخ كل مبلغ ، فارتجل خطبة رنانة

طنانة ، يطرى فيها صنيع ذلك الأريحي المفضال ، حائثاً أقرانه
أن يحلوا حذوه ، ويرتسموا خطاه .

واختتم الخطبة ، وهو يهتف من أعماق قلبه داعياً له
بالتوفيق وحسن الجزاء .

وانتهت الحصة ، وتفرق التلاميذ في فناء المدرسة يلعبون ،
وانبعث الخدين يتفقد صديقه ، فظفر به في ركن قصي ،
ولم يكن مرحاً كمادته ، فهو عاقد الجبين ، ضارب يديه في
جيب سرواله ، مطأطيء الرأس ، يركل الحصيات في حدة ،
وقد استبد به تفكير دفين .

فأقبل عليه الخدين يزحمه بالتهنئة ، ويمتدح ما أعطى
مبتهج الأسارير .

فغمغم الصبي يقول وهو على حاله :
اتركنى وشأنى . . . أنا لا أستحق كل هذا التمجيد .

— بل تستحق كل التمجيد .

وأطرق الصبي هنيئة ثم انبعث فجأة يقول :
أفى مستطاعك أن تسأل شيخنا عن السرقة ، إذا اقترفها
الولد من مال أبيه ؟

فعجب الخدين لهذا السؤال المفاجئ ، وأدرك أن فى

الأمر خبيثاً ، فجمعهم يقول :
لا تكتم عني ما في نفسك.. وأنا أستفتي لك شيخنا كما تريد .
ومرت فترة صمت ثقيلة ، قطعها الصبي بقوله :

لا تدهش ... لقد سرقت اليوم ... تم ذلك وأنا في
حجرة أبي على مألوف عادتي كل صباح ، أفتح كيس النقود
لأأخذ منه مصروف يومي المقدر ... فما إن ثأب الكيس بين
يدي ، يحفل بما احتوى من قطع فضية لوامع حتى هتف في
أذني هاتف كأنه صوت الشيخ « خير الله » يهيب بي أن يكون
مني لصدقة يوم الاثنين نصيب موفور ...

تهيب بادي الأمر ، بيد أن همسات الصوت اشتدت
وطأتها على ، وألفت يدي تنجذب إلى النقود تختطف قطعة
فضية رفيعة القدر . . . وهاجمني في ذلك الحين صوت أبي :
ماذا الذي أبطأ بك . . . ؟ أضللت نخباً النقود ؟ . . . الكيس
أمامك بجوار المرأة ... فبادرت بإخفاء ما أخذت من النقود في
جيبتي ، ورددت الكيس مكانه ، وانصرفت عن الحجرة في تلصص
ومحاذرة ، أستجدي طمأنينة البال من أنفاس النسيم .

وأمسك الصبي عن الكلام ، يحفف ما تفصد على جبينه
من عرق ، ثم جمعهم :

أسارق أنا . . . ١٩

وكست الكأبة وجهه ، ، وحنقه النشيع .

ومال عليه الحدين يربت كتفه ، ويهدئ من روعه :

لا تبتشس . . . ما أخذت لنفسك . . . لقد ابتغيت

وجه الخير . . . أنت حسن النية . . .

فقال الصبي في صوت خافض :

ما بالي لا أتصدق بمصروف يوى ؟ لقد أثمت فيما فعلت .

لن ينال الجنة سالب أثيم . . .

لم يجهل الناقوس الصديقين ، فقطع رنينه المشوم عليهما

الحديث ، وهو يلم شتات التلاميذ ، فهرع الصديقان إلى

الصف ، ينتظمان فيه .

واستقبل الصبي حصبة الحساب ، وهو في قلقه ، يعانى

حساب الضمير ، فما أثقن الفهم لمسألة تعرض ، ولا أحسن

الإصغاء لحل يشرح ، بل غاب في تفكير محتمد ، يستشعر

الضيق ، وكأنه يسير في طريق افترشته الأشواك ، تدى قدميه .

وما لفظ اليوم أنفاس الأصيل ، حتى انتشرت التلاميذ

في الشارع العريض ، جماعات في ضجيج ودوى . وتحلق نفر

منهم حول عربة لبائع هرم ، حافلة بألوان الحلوى ، فأقبلوا

عليها يتخيرون منها ويتتقون ، لا يفتر مطلب لهم ، ولا ينضب سؤال ، والبائع الهرم مقسم بينهم كالحلقة الدؤوب ، تستجيب للطلبات في طوعية واستبشار .

وجذب الحدين صديقه يهمس إليه :
علينا بمؤنتنا اليومية من الحلوى قبل أن يستنزفها الجمع .
ووقف الصديقان حيال العرب ، تتناول أنظارهما إلى ما حوت من لطائف ، ينتظران دورهما في زحمة الرفاق .

لم يكن الشارع العريض ينفرد بتلك العرب وما حوت ، بل هو زاخر بأشتات الجوانيت ، وأصناف الناس من وافدين وقاطنين .
ومن قصاصد الشارع كومة بشرية ، هي امرأة ضريرة ، مجللة بالسواد ، تأخذها العين عن كشب من جدار المدرسة تنفياً ظله ، في أسمال بالية ، ترتل آى الذكر الحكيم ، في صوت راتب حزين ، كلما تغنت بالآيات المحكمات هزت رأسها ، متمايلة به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطاوأت به طوراً وتقاصرت كأنها تطلق عينها المطمرستين ، سهاماً نفاذة ، تنصيد بها سواطع الأضواء .

على ركبتيها طفلان في مزق مهلهلة ، وقد أمسك كل منهما بكسرة ، يعف عليهما ذباب .

وتنقطع المرأة عن التلاوة في الفينة بعد الفينة ، تسكت المتباكى ، وترد عنه جور أخيه الذى شغب عليه .

وراع الصبى صنف جديد من الحلوى مثل اه يتلألا في لفافة فضية لامعة ، فتحمس يسأل عن ثمنها ، ولما أجيب عن سؤاله ، أخذ يحصى ما في جيبه من قروش ، وتلفت يتفقد صديقه ، فوقع بصره على تلك المزقة البشرية وطفليها المحرومين ، وقرع سمعه صوتها يتلو قوله تعالى :

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟»

فوقف الصبى بين المرأة والحلوى ، مقسم النظرات ، وابث في موقفه لا يحسن من أمره إلا التحير والتردد والإحجام .

وسرعان ما اندفع الصبى نحو الكومة البشرية ، يستودع يدها مصروف يومه ، وانطلق يعدو على الطريق ، في خفة ويسر ، كأنه ملك مجنح ، يصعد إلى سماء الخالدين من بررة وأخيار .

وأفاق الخالدين من ذكرياته التى تتراعى فيها طفولة صديقه فقيد اليوم ليجد قدميه تسوقانه إلى مدينة الصمت والظلام ، حتى مثل على قبر صديقه يقرأ الفاتحة ، وقد انبثق لعينيه من غيابات القبر نور وهماج .

سيكس أبيل

مثل الفتى نجاني في حجرة مخدعه ، قبالة صنوان الثياب ،
بعد أن فتح مصراعه ، يتخير منه حلة تأهباً للرحيل .

وأقبل على المرأة الكبيرة التي تبدت له ، يعقد رباط الرقبة ،
ويحكم وثاقه حول عنقه المكتنز ، ولم يكن قد ارتدى سرواله
بعد ، وما برحت قدماء العاريتان ، تترنحان في خف منزلي
أدكن قد تأكلت زواياه .

وأطال الفتى من وقفته يتملى رباط الرقبة ويعنى به ، حتى
ضبط عقدته ، وأحلها من البنيقة ، وسطها المختار .

ولما فرغ منه ، اجتلب سرواله ، وهم يدخل فيه ، وما إن
رفع ساقه يكمل زينته ، حتى جمد يتوسم طيفه ، والدهشة
أخذة به ، والتعجب يغشى ناظره ، كأن لقاء اليوم الذي تم بينه
وبين صنوه على صعيد البلور الشفيف ، هو أول عهده به .

عجباً ! أ يكون هو هذا الخلق الشائه : أنف أفطس التحم
بوجنتيه ، وعينان غائرتان تضايقت حدقتاهما ، وتلم جفناهما ،

فتناثرت الأهداب فى منابتها ، مصبوحة كأنها أعواد المشيم ، يظلمها حاجبان متورمان ، ينفر منهما شعر غزير .

أما الساقان فهنفرجتان فى انبعاج ، انتفش عليهما الشعر كثناً كثيفاً ، وأما القامة فتقاصرة فى تكتل ، وقد تداث منها ، حتى لامست ركبتيه ، ذراعان مغرقتان فى الطول ، أثقلتا كاهليه ، فانعطف رأسه ، وانحنت هامته ، وتأود ظهره ، فكأنما هو القوس ، يسعى بعضه إلى بعض ، من طرفيه .

عجباً ! أياكون هو قرداً آدمياً ، افظته الأبحراج متكررة له ، فغدا فى نخضم الحياة ، طرفة تثير بغرابتها التعجب والفضول ، أم هو فضلة من حطام بشرى ، غفل عنه القدر ، حين كان فى الأحشاء جنيناً يتخلق ؟ فما أوى القدر ظهره ، يتشاغل عنه حتى غشى الأحشاء اضطراب ، وكأن الماء الذى يحتويه ، ويدفع فيه الحياة ، بحر مائج غضوب حفل بالمكاره والأخطار ، وسرعان ما هبت عاصفة نكباء ، تسوى منه فى استخفاف ، ذلك المسخ الآدى ، آبية أن يرتفع صرح بنائه ، على توافق وتآلف وانسجام .

ولما أقبل القدر ، يتفقده ايعاود رعايته ، كان البناء قد تم تشييداً ، يسود خلقه تنافر وتشاتم ونخصام .

وانسرح الفتى يقاب في المرأة ناظره ، في تكره وستنكار ،
وعلى محياه مسحة من كآبة وشحوب .

لا مرية عنده أن الذى شاهده هو هفوة من هفوات البصر ،
خدعته ، كما يخدع السراب النظر وهو يتألق على بسيط
الرمال ، تألقه الموج ، تحسبه العين ، على البعد ، ضوء الماء
الألاق ، وقد نالت منه أشعة الشمس ، تلفح صفحته ، في
رحاب الفضاء العسجدى .

أيغدر به هذا الأعجم المارق الغرير ؟

أليس جزاء الغدر إلا الغدر والتنكيل ؟

أحجى به ، أن يكدع أنفه ، ويشج هاهمه ، ويسمل
عينيه ، ليهشمه جملة ، يريح النفس من عناء وجهه الأغبر
الكؤود ، ليجعل منه أحدىثة تتنادر بها الأفواه ، وأثراً تعفوه
الرياح ، وتنطق في خرائبه اليوم .

وهم نجاقى ، ينفذ ما انتوى ، حين تراقى إلى سمعه صليل
الجرس يعوى في أذنيه عواءه الموصول ، فأرتج عليه ، وحارت به
قدماه ، وما برح سرواله متشعثاً على خاصرته .

واستبد وجيب الجرس ، وكأنه سوط يلهب أعصابه
بفرقته ، فهرول صوب الباب يزجر ويجمجم ، تتشاغل يسراه

بنطاقه الجلودى ، يلفه حول كرشه فى تعثر ، على حين تلاعبت
 يميناه بمزلاج الباب قرفعه ، ووجهه مخمتم من غيظ .
 وتثاءب الباب .

وبدا له ، من فرجته وجه مطههم مشرب بحمرة ، وقامة
 فارعة ، يكسوها لحم شحيم ، فتبين على الفور ، صديقه
 « عبد الباسط » ، زميل الدرس ، ورفيق العمر .

و « عبد الباسط » هذا فقى فى شرح الشباب ، اتسم
 بالأكياسة والظرف ، ضاحك الأساير ، لا تفارق البسمة شفتيه ،
 مشغلته الكبرى فى الدنيا ، وليمة فاخرة تحفل بصحاف الطعام
 الشهى ، وتفخر بخمر معتقة تنلأ فى أكوابها الشفافة ، تفغم
 الأنوف بشذى رحيقها الفواح ، وكأنه عبق الورود النضرات
 تحملها ، عند الأصيل ، أنفاس النسيم ، إبان الربيع .

ومتعته مجلس أنيس ، يطيب له المقام فيه ، يطارح رفاقه
 المعابثات والأضاحيك ، ولا يلبث أن يتصدر الجمع ، يؤنسهم
 بألوان من المفاكهة والمزاح ، لا يمل ولا يكل ، وهو يردد على
 مد الساعات ، فى تهمل وتهريج وتصفيق .

وظل الفتى نجائى ، قابضاً على مصراع الباب ، لا يفسح
 منه إلا فرجة ضيقة ، يملك بها على صديقه الطريق .

وانحنى « عبد الباسط » يحميه تحية الإصباح الندى ،
والابتسامة الخالدة ترف على شفثيه ، فلم يبادلہ الفتى نجاتى
التحية ، وما زال يحدجه ، دون أن ينبس .

وعجب « عبد الباسط » لهذا اللقاء الجاف الذى استقبل
به ، واستجمع يدفع الباب بمنكبيه ، فتراحبت فرجته ، تهدى
إليه الطريق ، على حين تقهقر نجاتى متعثرة به خطاه ، وقد
صك الباب جبهته ، فترنح يرتطم بالجدار ، وتساند على الحائط
يحمى نفسه بكلتا يديه ، من سقطة محققة ، فانزلق سرواله
متجمعاً على الأرض ، يقيد قدميه .

واقتمح « عبد الباسط » الشقة يزجر ، محند النبوة :
حقاً إنك تفتقر إلى كياسة وأدب . . . أحييك فلا تجيب .
وانكفاً نجاتى يرفع سرواله إلى خصره ، وهو يغلى غليان
المرجل ، ومن ثم دلف إلى حجرة مخدعه مغمماً لا يبين ،
وفى أعقابه « عبد الباسط » يضرب الأرض بقدميه ، ويلوح بيده
واسانه كالمدياع الثرثار ، لا ينقطع عن الإنشاد يردد :
حين تقف على السر الذى جشمنى السعى إليك فى مثل
هذه الساعة الباكورة ، ستجثو ، حتماً ، عند قدمى نادماً تقدم
العذر ، وتطلب الصفح .

واستدار الفتى نجأتى يوليه ظهره ، وتشاغل بسترته يرتديها ،
وهو يلقي كلامه فى استخفاف :
سرك أعرفه .

وبهت « عبد الباسط » يهيمهم :
ماذا تعنى ؟

— إفلاس جيبك هو الذى ساقك إلى ولا ريب . . .
أو تحسبنى غيبياً ، لا أفهمك ؟
وانفجر « عبد الباسط » يغرب فى ضحك ، وأجاب فى
غير مهل :

طاش فألك وخاب ظنك . . . من الذى فى حاجة إلى
مالك . . . الدنانير ملء جيبى تتجاوز العد ؟
وضرب يده فى جيب سرواله ، يتلاعب بالانقود الفضية ،
لرئيسها فى محبسها ، صوت مكبوت .
وجابه نجأتى صديقه يقول :

إذن ما الذى دفعك إلى هنا . . . إن لم يكن ضيق ذات اليد ؟
وغمز « عبد الباسط » بعينه يستطرد :
آه يا عزى الصديق أو علمت .
— كفى . . . أنا است فى وضع يسمح لى بالهذر . . .

أماى يوم حافل طويل . . . أوجز القول . . . ماذا تبغى ؟
— عندى لك مفاجأة . . . مفاجأة عظيمة .

وأسكتة الفتى نجأتى بإشارة من يده ، وأنشد يقول :

من أين لى بها ؟ . . . أنا لا أتوقع الترقية بعد .

— أو هذه مفاجأة تستحق منى الاهتمام . . . تفهم . . .

لا تكن غيبياً . . . أكرر عليك : إنها لمفاجأة كبيرة . . .

عظيمة . . . مفاجأة الموسم ولا ريب . . . أوعيت ؟

وحملق الفتى نجأتى فى صديقه ، وقد اشتد به التطلع .

فنطق وشيكاً يقول :

هات حديثك . . . خلصنى . . . لى مصغ لىك .

وأشرأب « عبد الباسط » يطلق قواه فى لهجة مأكرة :

أحقاً أنت تريد أن تسمع لى ؟

فزيجر الفتى نجأتى فاقد الحلم :

يا لك من مأفون . . . قليل العقل . . . أولست أحثك

منذ قدمت أن تطلق ما عندك من حديث ؟

— مهلا يا صديقى . . . لا تكن عجولا نافد الصبر .

وأخرج من جيبه لفافة تبغ أشعلها على مهل ، وجابهه

الفتى نجأتى بمنح الساعدين ، ينظر لىه شزراً ويغمغم :

خلصنى يا أخنى . . . لم أعد قادراً على صبر .
 واستعلى « عبد الباسط » يقول وهو ينفث دخان أنفاقته :
 هامت بك نساء الأرض . . . يا دون جوان العصر . .
 لأنهن صرعى هواك . . . يتردين فى شباك حبك . . . ويا إله من
 صبيد سمين !

فهمهم فى سهوم :
 النساء . . . يتردين فى شباك حبي . . . صرعى هواى !
 وانقضت فترة صمت ، واستدار نجائى يقول خشن اللهجة :
 النساء ؟ . . . ما لى وما لهن ؟
 — بل لك معهن أمر وأى أمر . . . الغانية إنصاف
 تهواك . . . تحمل لك بين جنبيها هوى مشبوباً .
 وهز نجائى رأسه ، رافعاً حاجبيه ، وطفق يذرع الحجرة
 جيئة وذهاباً ، حائر الخطو ، وقد أظلت جبينه سحابة من تفكير .
 واسترسل « عبد الباسط » يقول فى تباطؤ ، وهو ينسق عباراته :
 سمعت منها ما هزنى . . . حقاً إنها هائمة بك . . . فنند أن
 اكتسحت عيناها بصورتك لم تعرف للزوم طعماً ولا للراحة من
 مذاق . . . إنها تفضل الموت على فقدك . . . فما قيمة الحياة
 وهى خاوية منك . . . ؟ إنها ، بحسب زعمها ، العواصف

والرعود . . . اليأس والقنوط . . . الجوع والحرمان . . . الجحيم
والنار . . . الضياع والفناء . . . أما في كنفك ، فهي ابتسامة
الصباح الندى . . . هي الحدايق الحالية . . . هي المروج
الخضوضرة . . . هي الأنس . . . هي السلام . . . هي الخلود .
وانقطع « عبد الباسط » عن الإنشاد ، وسما بعينيه ، يرقب
صديقه ، ويتبين أثر الكلام فيه .

والتفت الفتى نجاني محملاً يسأله :

من تكون « إنصاف » هذه . . . ؟ أنا لا أعرفها .

— ومن الذى يجهل « إنصاف » . . . إنك تضحكى . . .
« إنصاف » النجمة اللامعة . . . صاحبة الصيت العريض . . .
إنها عميدة الراقصات فى ملهى « الأضواء الحمر » .

وانبرى « عبد الباسط » يطرى اصديقه ، ما طبعت عليه
الغانية من وسامة وجمال ، منمقاً فى القول ، مغرقاً فى الوصف .
وأسرع الفتى نجاني يستخبر :

هل التقيت بها من قبل ؟

— فى الحفل التذكرى الذى شهدته أنت معنا عند صديقنا
« عبد الباقي » منذ أسبوعين . . . إنه الحب . . . الحب العنيف
المتمكن . . . الحب الذى يصيب الفؤاد من أول نظرة . . .

لقد نفذ السهم المريش إلى قلبها وتمكن منه . . . إن الثقب الذى أحدثه عميق . . . عميق . . . عميق .

وما أتم حديثه ، حتى جلجل جرس الشقة فى رنين أرعن . . . فتناول الصديق بهامته يهمس :

أو تكونى هى . . . ؟ هاجها الوجد ، فشت إليك ؟

وتحير الفتى نجائى ، يدق الأرض كأن عقرباً لبسته ، وقال مبهور الأنفاس ، وهو يلوح لصديقه بظهر يده يحته :

اذهب . . . اذهب تبين الطارق من يكون !

وزايل الصديق حجرة الخدع ، ودلف إلى الردهة متوخياً باب الشقة الخارجى ، والفتى نجائى من خلفه ، يتقن أثره ، يرقب الباب ، لا يهدأ ولا يستقر ، وقد عمد إلى هندامه يصلح ما يكون قد تشعث منه ، وأنجى على شاربه يفتله .

وما إن صر الباب ينفتح ، حتى مرق منه صديقهما «عبد الباقي» صاحب الحفل التكرى ، يقتحم الشقة كثور هائج ، استحثوه إلى حلبة المصارعة ، فانبعث إلى رحابها من محبسه الدامس يجول فى شرود وجموح ، يعشى النور عينيه ، فيقشعر بدنه ، ويتشمم الريح بنحشومه البليل ، يرتصد لمنزله ، ويمزق الهواء بقرنيه كأنه يشحذ منهما النصل ، ليقويا على الطعان .

وترأى له «نجاتى» يحتل من الردهة الصدارة ، كأنما هو
مصارع الثيران الجسور ، ثبت فى مكانه يلوح لخصيمه
بشملة الأرجوانية المقصبة ، فيزيده من هياج وحماس ،
وما لبث «عبد الباقي» أن ركض ينقض عليه ، لقدميه على
الأرض دبيب مسموع ، وفى نبرته تهلل ، ولسانه يردد :

أين هو... اتركوه لى... اتركوه لى أزف إلية النبأ العظيم !
وسرعان ما هجم عليه ، وأمسك به من كتفيه ، ومثل
يتأمله ... تبرى عيناه برىق الإعجاب والتعظيم ، ومن ثم
ضمه إلى صدره ، وأقبل على وجنتيه يزحمهما فى تقبيل ثقيل ،
يتغنى بقوله :

أهنيك ... أهنيك ... يا دون جوان العصر ... لقد نلت
الدرة الفريدة ... «إنصاف» ... أميرة المسارح ، وملكة الفن .
وافقت «عبد الباسط» من مكانه خلف مصراع الباب ،
يظهر صديقه ، مؤكداً بالإشارة ما تفوه به ، دون أن يسمع
له صوت .

والمعروف عن «عبد الباقي» أنه فنى متزن الطبع ، دمث
الخلق ، وفى صداقته وفاء الظل ، إلا أنه ينفر فى الحين بعد
الحين ، من ركود التحفظ ، فيخرج عن تزمته المألوف

يستطيع المداعبة والعبث ، وإن كان هدف الدعابة الأصيل ،
خلا من خللانه الأصفياء ، يكن له الإعزاز والإجلال .

وارتعش صوت الفتى نجاني بقوله :

أففضت إليك أنت الآخر بسرهما المكنون ؟

فسعل « عبد الباقي » يقول :

وما وجه الغرابة في ذلك . . . ؟ لمن إذن تريد أن تبوح
بغرامها ، إن لم يكن لصديق مشترك يمكنه بمسعاها الحميد الجمع
بين محبين ، والتوفيق بين قلبين .

وسكت ، يحفف ما تفصده على جبينه من عرق ، ثم تابع :
تود « إنصاف » أن تلقاك الليلة .

وخرج نجاني عن صمته ، يهمهم في دهشة :

الليلة . . . الليلة . . . تلقاني أنا . . . تجتمع بي ؟

-- إنها على انتظار . . . تتحين الأنباء . . . بماذا تريدني

أن أجيب ؟

وسرعان ما رفع سماعة الهاتف ، وتشاغل بقرصه يديه ،
دون أن يفسح اصديقه مجال تفكير وتدبير ، وانبعث من
الهاتف صوت منغم يقول :

آلو . . . من ؟

— أنا «عبد الباقي» ... إنصاف ؟ ... صباح الخير ...
 أخبارى ؟ ... ابن ... نجاتى ؟ ... يسعده لقاءك ...
 عليك تحديد المكان والزمان ... ماذا ... ؟ أنت تواقه لسماع
 صوته والتحدث إليه ؟ ... الآن ... ؟ تقولين لا صبر لك ...
 عظيم ... أمهلينى حتى أنهى إليه الخبر .
 ولوح «عبد الباقي» اصديقه بعينه فلم يظفر منه إلا بإيماءات
 التمتع والاعتذار ، وقد لاحت على مخايله علامات التهيب
 والإحجام .

ونحى «عبد الباقي» السماع جانباً ، وهمس يقول :
 لا تكن هكذا فظ القلب ، غليظ الطباع ... ترأف
 بها ... هيا . تحدث إياها .

وأمعن الفتى نجاتى فى تمنعه ، وهو يقرض أظفاره ، متوفز
 الإحساس ، فما كان من «عبد الباقي» إلا أن أسلم إليه السماع ،
 يقول فى خفوت :

خذ ... الأمر يعنيك وحدك ... الفرصة فرصتك ...
 أنت وشأنك .

وأذعن الفتى نجاتى إلى الأمر ، وجرى عبر الأثير حديث
 أنيس أنهاه الفتى بتلك العبارات :

أمرك . . . الليلة . . . في الثامنة . . . بملهى الأضواء
الحمر . . . لا . . . لن أتأخر . . . إلى اللقاء .

وأخيراً أهوى الفتى «نجاتي» بالسماعة إلى موضعها في رفق ،
وتقاطرت في رأسه الأفكار ، فهم في بيداء الأخيلة والظنون .

أهذر ذلك الذي يعيش فيه أم حقيقة دامغة لا يداخلها
شك أو تغرير ؟

وابتسم الأصدقاء الثلاثة يفتقون على لقاء .

وحين وقف «عبد الباقي» يودعه ، انفرد به ، يربت
ظهره ، قائلاً :

هنيئاً لك صيدك المرىء .

وفي الموعد المتفق عليه ، طرق نجاتي الملهى ، يسعى بين
صديقيه ، يحجل في خطوه كقرد من تلك القردة الدربة ،
استقدمه مروضه ، هاهنا ، ليعرض أفانيه المثيرة ، ويشيع
بين النظارة الأنس والابتهاج .

واعترضهم مضيف من غلمان الملهى ، فنصدى له
«عبد الباقي» يطلب الغانية «إنصاف» عميدة الراقصات ،
فهداهم برأسه الطريق ، ثم تنحى عنهم منصرفاً إلى بعض
الشئون ، يوليها العناية والاهتمام ، فالملهى لم تنتظم حركته ، ولم

يعمره السمار بعد ، فخلا من رواده إلا بعضاً منهم ، تناثروا في أرجائه ، على الموائد ، يشربون ويسمرون .

ومضى ثلاثتهم إلى ركن قصي ، فطاعنهم «إنصاف» على خشية وثيرة ، ينفخ منها عطر نفاذ ، وتتألق في ثوب رفيف يلتصع فيه نثار براق ، شق عند النحر ، يكشف عن صدر مرمرى ، يثير في النفس بهديه المشرئين ، كوامن النزعات والأحاسيس . وزم «عبد الباقي» قدميه ، وانحنى في إجلال ، يأخذ يدها الخصبية ، يودعها قبلة التحية والاحترام ، وتبعه «عبد الباسط» فلامست شفتاه كفها العبلة ، ثم صلب عوده يقول ، وفي عباراته رنة زهو وانتصار :

لقد أحضرنا الوديعة لإنفاذاً للأمر . . . ها هي . . . !

واستدار يسحب الفتي نجاني ، يقدمه .

ورفعت «إنصاف» حاجبيها ، وسمت إلى «نجاني» تكسر له عينها ، في إثارة ودلال ، فطارحها النظر في خشية وتردد ، وقد تخشب في وقفة صلبة كأنه دمية من تلك الدمى النحاسية ، يلهو بها في فراغهم الأطفال .

وشق صوتها الصامت ، يقول :

ألا ترغب في الجلوس ؟

واستجاب لها يأخذ له مجلساً ، كأنما هو آلة تحرك
بلولب ، وتنحج الصديقان ، يطلبان الإذن في الانصراف ،
فهزت الغانية رأسها علامة الرضى والإقرار ، فصعدا إلى مائدة
عن كئيب ، يتخذانها مراقبة ، يتابعان منها في مساترة وتلصص ،
فصول «الغرامية» التي تجرى أحداثها منهما ، على بضع خطوات :
وتدانت الغانية من الفتى «نجائى» تلاطف كتفه مشبوبة
الوجدان ، وما لبثت أن طوقته بذرعاها ، وأنفاسها تتلاحق على
وجنتيه ، تقول :

دعنى أتحنسك . . . أشعر بك . . . أشعر بالنار التى
أججت منى المشاعر ، وألحبت فى قلبى ضرام الحب . . .
دعنا نحتفل بهذا اللقاء . . . دعنا نشرب نخب حبنا .

وارتدت عنه تصفق .

وأقبل مضيف المشرب .

وتفوهت أمرة :

شامبايا . . . أفخر ما عندك .

وغرب المضيف يذعن للأمر ، ناشطة خطاه .

وعدلت «أنصاف» بوجهها إلى الفتى «نجائى» تحديق لإليه ؛

ثم هوت على أذنه بفمها ، تماجنه وتناوشه فى غير احتشام ،

فتزيده من هيجة وضرام .

وما كرع الكأس الأولى ، حتى هبط على ذراعها يلتمه
فى تقبيل مسعور ، ويهمهم فى هوس :

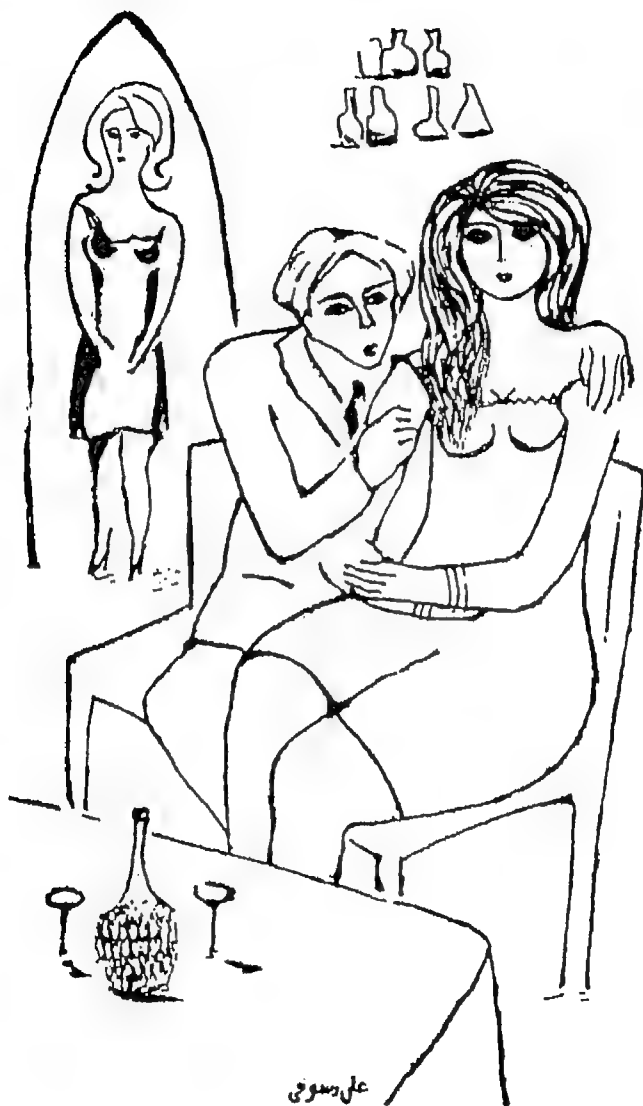
أحبك يا « إنصاف » . . . أعبدك يا « إنصاف » . . .
أنا خادمك يا « إنصاف » . . . عبد من عبيدك . . . ملك
يدبك يا « إنصاف » .

وبغنة اضطربت اللراع ، كأنها زازال ، فارتجت
أوصاله ، واصطكت أسنانه ، وأحس بدوار يعبث برأسه
وتناهى إلى سمعه صوت الغانية ، ينفجر فى زمزمة مخيفة ، يقول :

إن لم تنصرفى من فورك ، حطبت رأسك ، وسويت أنفك
بوجنتيك . . . إنه لى . . . لن يمتلكك غيرى . . . لن أفرط فيه
لأحد . . . أتعين أيتها القطة المنهومة ؟

وأرتج على الفتى ، وتطلع فى تشوف يتكشف ، فألقى عن
كثب منه ، حورية من غوانى الملهى ، صارخة الزينة ،
فاحشة الجمال ، ترنو إليه وفى عينها افتتان وإعجاب .

وتشابكت نظراتهما هنية ، ومالت غانية الملهى تقول غمازة
بالحاجب :



علی رسولی

أنا صفاء .

ونفض الفتى يزجى لها التحية ، فى زحمة من حفاوة
وترحاب ، فعلقته به « إنصاف » تلزمه مقعده ، على حين
انطلقت بعينها إلى تلك المجترئة الجسور ، ترميها بنظرة شذراء .
وأطلقت « صفاء » ضحكة عابثة فى غير مبالاة ، ومن ثم
أقبلت على الفتى تيمس بخصرها ، وتصعد فيه نظراتها تقول وهى
تمط الكلمات فى دلال :

زين الشباب ولا شك . . . رجل ولا كل الرجال .
وحلجتها عميدة الراقصات بنظرة جامدة ، تقول فى صوت
بجهير ، تتعجل فى الإمرة والسيطرة :
اغربى من هنا أيتها الحدأة الخطافة :
فهمهمت صفاء فى استعلاء وتحد ، وهى تغازل الفتى :
ألست أكمل جمالا من تلك العقاب الهرمة ؟ . . . انظر
إلى . . . تفرج .

وطفقت تدور ولا تفتأ تدور ، عارضة عليه مفاتن جسدها
اللولى فى خلاعة وابتذال ، ثم عمدت إلى ثوبها ترفع حواشيه ،
فتبدى له ساقان مفتولتان فى انسياب ونعومة ، هما فى جور بهما
الهفاهف آية جمال وإبداع ، فغزا الفتى نجاتى تلك المناطق

الخطرة ، بعين شرهة ، وحس متلهب ، وقلب هيمان ، ولم يعد قادراً أن يصبرف عنها ناظره .

ورنت من « صفاء » ضحكة مديدة ، فيها طراوة وتميع ، وهمست تقول وهي تبرز مفاتها في خيلاء :

كل ذلك ملك لك . . . طوع بنائك . . . أنتظر الإشارة لأقدمه على مذبح الحب هبة خالصة لك .

وانتصبت « إنصاف » تصبح غضوب الصوت ، متمرة النظرات :

قسماً بالله . . . إن لم تغربي . . . لأخشن وجهك ... وأشقن رمسك . . .

ولم يفلح مع « صفاء » تهديد أو وعيد ، ولم تظفر « إنصاف » منها بغير الزراية والإهمال ، وأقبلت على الفتى غير هيابة ، تداعب خصلة من الشعر نفرت على جبينه ، وما عمت أن امتدت إليه تدغدغه وتناغيه بجانب الحشمة والتحفظ ، فأنثى يتضاحك في استسلام ومراح .

وسرعان ما نشبت بين الغائيتين معركة حامية الوطيس ، تستهدف الحفاظ على الفتى والاستئثار به ، هذه تجذبه وتلك تلقفه ، وهو بينهما كرة حائرة يتناقلها اللاعبان في جسارة

وحماس ، دون مسالة أو فتور .
وبينما الكرة حائرة تضطرب ، بين مد وجزر ، إذا بها تشعر
بسواعد حداد تخاطفها نائية بها عن ساحة المعركة ، وتصيدت
أذناه همساً يوسوس له :

يا لك من محظوظ . . . تتقاتل في سبيل غرامك غوانى
الأرض . . . الحمد لله الذى أنجأك من ضرر وشيك .

ودفع الصديقان الفتى «نجاتى» بثمان الخطو ، فتقدمهما
يغزو الطريق ، على حين أخرج «عبد الباقي» ورقة رفيعة
القدر ، وطق يلوح بها للغانيتين في مساترة واستخفاء ، ويغمز
لهما غمزات الإطراء والاستحسان .

وتعانقت الغانيتان ، يسودهما وئام وسلام .

وما إن احتوى الطريق الأصدقاء الثلاثة ، حتى نشط الفتى
«نجاتى» يقول في زهو وخيلاء :

لقد أشفقت على الفتاتين . . . ولكن ماذا أصنع لهما وهما
يتنازعاننى ويتقاتلان في سبيل الظفر بي ؟

وسنح على فم الصديقين ابتسام مريب وهما يسألانه
ما سر التنازع فيه :

بالله أخبرنا . . . لا مرية أنك تنطوى على طلاس تجعل
منك آية من آيات الفتنة والإغراء ؟

فاشرأب الفتى ، يكسب قسماته إمارات التيه والفخار، ويقول :
 — إنه السيكس أبيل . . . ألا تفتنان ؟ . . .
 وأخذ يضرب كفّاً بكف ، وهو يردد فى تعجب :
 يا للغفلة . . . ويا للغباء !
 فشبه الصديقان يقولان :
 وما هو السيكس أبيل هذا الذى تشدق به ؟ . . . بالله
 عليك زدنا معرفة أيها الدون جوان التحرير .
 — إنها بتعبير آخر.. الجاذبية .. أسمعنا مثلاً بجاذبية الأرض ؟
 — سمعنا . . . ولكن يعوزنا الشرح والفهم .
 — الجاذبية . . . هى . . . هى المغناطيس القوى . . . يشد
 الكائنات إليه فى عنف فلا تملك إلا الانجذاب والانقياد . . .
 وإذن ، يا صديقى ، فأنا مثل الأرض أحتوى على ما لها من
 جاذبية فعالة ومغناطيس قوى . . . وما النساء إلا الأجرام المتصاغرة
 التى تدور فى فلكى ، وتهاوى صرعى بين يدى .
 وتلاقت نظرات الصديقين ، على حين التفت الفتى «نجاقى»
 إلى الطريق يخطر عليه فى تيه ، وقد تملكته نشوة العزة والنصر ،
 وكأن الطريق الدامس الذى يمشى عليه انفرج عن إشراق ،
 بيدد وحشة الظلام ، فتبدى وكأنه يختنق بنساء الأرض قاطبة ،

خرجن في موكب حافل مهيب ، يحدقن به ، ويخطبن وده ،
ويلتمسن رضاه ، رافعات الأكف في ضراعة واسترحام .

وتقاصرت من القى خطاه ، وأخذ ينقل قدميه على محاذرة
واحتراس ، يظن من يراه أنه يشق سبيله مجهداً ، يعانى من
زحمة قاتلة ، تخنق بحرها الأنفاس .

وما إن احتوته حجرة مخدعه ، حتى مثل قبالة صوان الثياب ،
بعد أن فتح مصراعه ، يفرج عن مرآته الحبيسة . ولما ظهرت
له ، قاربها جياش الأحاسيس يقص عليها ما كان من مغامرة
الليل ، فاشتبك والبلور في مناجاة أنيسة ، غمرها ود وصفاء ،
وإذا هو يتوسم صنوه وكأنه يتابع وجه الربيع في موكب الأزاهير .
وأوغل النظر يغازل طيفه ، لا يقوى على فراق ، فإذا المرأة
تتحفه بمزيد من طلاقة وإشراق .

وطالت بالقى وقفته ، حتى شعر بالنعاس يرتق في عينيه ،
والخدر يسرى في أوصاله ، فقال على سريريه ، يحتويه سبات
عميق ، ترفرف على أساريه . . . أساريه القرد الأدنى مباهج
الأحلام ، وكان صوته ، في الحين بعد الحين ، ينطلق غليظاً
ناعساً ، يخلط بقوله :

يا نساء الأرض . . . صبراً . . . مهلاً . . . ستنال كل
منكن لمسة من يدى . . . وخلجة من فؤادى . . . وقبلة من
فى . . . أنا لكن . . . لن أبخل بنفسى عليكن !

نداء

شغف الأستاذ « عنتر المحلاوي » منذ فجر حياته بنزعة
آثرها على غيرها من دوافع ورغاب ، ما فتئت على الرغم من
اشتداد عوده ، وتكامل نمائه ، تعنف به وتلح عليه في مثابرة
وإصرار كأنما هي من نفسه شعلة دائمة التجدد موصولة لا اشتعال .
لقد شب صاحبنا طلاعاً إلى الأسفار ، وإن لم يكن قدر له
بعد ، أن يغترب عن موطنه الأصيل مسيرة يوم أو بعض يوم ،
فهو ما زال يمني النفس كسابق عهده دون أن يحقق في الأسفار
شيئاً من آماله الرحاب .

إنك إن تفقدت باطن وجدانه استبطنت ذلك الشعور
الفوار ، وليد ما غرسه الأستاذ « عبد الغنى السبكي » في نفسه
الفتية من رغاب ، حين كان صاحبنا يتلقى عنه درس تقويم
البلدان ، عصر الخميس من كل أسبوع ، في مدرسة بالسيفوية
لا يخطر الآن اسمها لي ببال .

كان الأستاذ « السبكي » فوق كونه أستاذاً للتاريخ ،

رجل فن وفكر ، أديباً ملهماً ، وفناناً ذكياً ، يميّط عن التاريخ الغوامض والمعميات ، ويجلوه لك في ألواح أخاذاة ، وكأن حوادثه قطع الصلصال تشابكت بين أنامله ، يلينها ويشكلها ويصبها في قوالب فنية مبدعة تفتنك من روعة وسمو وجلال .

وما ينساب صوته في الفصل يترسل على سمعك في غنته الصافية ، حتى يبعث على مطرح وجدانك ، المدائن التاريخية من سباتها العميق تنفض عنها شملة التقادم والنسيان ، فإذا الذي كان رفاتاً يصبح في طرفة عين كائناً حياً متكامل النضج ، فلا تعتم أن تتمثل لك الأطلال والدمن ، قصوراً يغمرها ضياء وتعمها ضجة وحركة .

ولا يفوتك وأنت تستمع إليه ، أن تعاود العيش مع تلك الحشود الجامعة ، تشرّكهم الحياة بما حوته من حلول ومر ، ولا يسعك إلا أن تحد السمع ، وأنت بحديثه موصول أنيس .
كذلك كان صاحبنا كلما ضممه الدرس ، فما تنقضي الحصّة ، حتى يؤوب إلى داره يحتبس في حجرته ، ثم يخرج إلى المستشرف ، يتكئ بساعديه على حافته ، وقد تملّكه سهوم وهو يسترجع الدرس مع بواكير المساء وهدأة الليل ، وكأن على عينيه منظراً مكبراً يقرب له البعيد ويدنّي ما يهفو إليه ، أو كأن

بإصبعه خاتم سليمان وإذا هو يلقي نفسه متربعا على بساط
الريح ، يسبح في أجواز الفضاء ، شرقاً وغرباً ، دون أن يعوقه
في منطلقه زمان أو مكان .

فلا غرو إذن وقد أصبح صاحبنا رجلا متكامل البناء ،
صلب العود ، أن يتهافت على مصورات الجغرافية ومصنفات
التاريخ قديمها وحديثها يجمعها إليه كي يروى ظمأه من مائها
التمير ، غير مقتصد في مال وجهده وسعى .

إنه يعيش في الحياة فرداً لا رفيق له إلا تلك المجلدات التي
تحتل من مغناه الرشيقة حجرات ثلاثاً .

يستقبل صاحبنا ضحوة كل يوم ، غائصاً في أحشاء
المكتبات ، يتخير وينتقى ، ناسياً نفسه ، مشغولاً بصفحات
المجلدات كعاشق متيسم قد التحم والكتاب في غزل صامت وديع .
وسرعان ما ذاع صيته بين أهل المكتبات فساروا يخطبون ودّه
ويتنافسون فيه .

ويوماً اتفق لصاحبنا أن قصد حي الحسين في جولة من
جولات صيده اليومي ، فانخرط في شارع الممدود ، حيث
تتزاخم على جانبه الشرق المكتبات مترابطة ، تبدى له كل منها
حلاها وتسفر عن مفاتها وتدعه مقسم النظر بينها في حيرة وافتتان .

وأقبل صاحبنا على واجهات الحوانيت يتسكع أمامها في تشوف وتعرف ، وأدت به خطاه الزاحفة ، إلى مكتبة الشيخ «أحمد المغربي» زعيم تجار الكتب لا في حي الحسين فحسب ، بل في مدينة المعز غير متازع ، فتوقف صاحبنا يحيل الطرف فيما حواه الخانات من نوادر وألطف .

فلما لمح « الشيخ المغربي » مقبلا عليه انقطع عن تسابيحہ واشرب بعنقه المكتنز ، وكأنها عنق ثور صدف عن علوفته يرأري بعينه ، وما عثم أن ثبت نظارته الصدئة المغبرة على أنفه ، وقد انبسطت أسارير وجهه في إشراقة ، وانفرج فمه عن بسمه ملق ، يهدي إلى صاحبنا التحية رافعا يديه إلى عمامته يسوى طياتها وهو يقول في حماس :

أهلا . . . أهلا بالصدیق الحبيب . . . صباحك صباح
الندي ولا ريب . . . والله يا أستاذ إنك ابن حلال . . . رزقك
يسعى بين يديك . . . عندي اليوم لك بشرى وأى بشرى . . .
درة فريدة لا يفضلك في اقتنائها آخر . . . حسبك أن تضيفها
إلى دررك الغوالي . . . كتاب جامع عن الأندلس . . .
موضوعك المفضل . . . تجد فيه شعراً عذباً ونثراً بليغاً . . . وتاريخاً
عجيباً . . . وسيراً . . . وتراجماً . . . وحتى السياسة لها شأن فيه

مرموق . . . خمسة عشر مجلداً . . . كل مجلد منها لؤلؤة نفيسة
ما نظرتها عين من قبل .

وأخذ « الشيخ المغربي » ينشد جملة هذه وهو ينغم من صوته
ويحد النظر في صاحبه ، يتوضح بعين التاجر الدرب ، وقع النبأ
في نفسه . فألقاه مشبوباً يستخفه الشوق ويهفو به الفضول .

على أن صاحبنا أخذ نفسه بالحزم ، وتماسلت يقول مرسلًا
ضحكة ناصلة ينشد بها ما يعتلج بين جنبيه :

الأمر يا شيخ المغاربة يتوقف على الثمن .

واستدار الشيخ دون أن يريم مكانه يعبث بين كومات
عفراء من الكتب تسامقت خلفه ، وهو يغمغم :

الثن أيسر مما تظن . . . انظر . . . تفرج . . . الوقت
فيه متسع .

ومد يسراه إلى صاحبه بجزء من الكتاب الأندلسي المرموق ،
يتاوله ويمينه تضرب جلده ضربات خفافاً أثارت حوله غلالة
رقية من غبار ، وما لبث أن أخذه سعال ، فقال متحشرج
الصوت محتقن العينين نافر الأوداج :

— هاك الدرة الثمينة . . . تصفحها ... تجلدي ولا غرو

قد صدقتك القول فيما وصفت .

تناول صاحبنا الكتاب يقلبه في دقة وعناية ثم رفع رأسه
يقول والكتاب متناثب بين يديه :

ما ثمنه يا شيخ ؟

— ما تجود به أقبه . . . ليس بيننا مماكسة يا أخى .

— إن ابتغيت حقاً لإتمام الصفقة فعلى بالكلمة الفاصلة .

وتشابك الرجلان في مماكسة عنيدة أطالت من وقفة
صاحبنا ، وأخرجت « الشيخ المغربي » عن وقاره وتحشمه ،
فخاض في حديث متشعب ، يستنكر ما عرض عليه من ثمن ،
مؤكداً قوله بالآيمان المغلظة أنه لو ارتضى لإتمام البيع على هذا
الثن لكان ، وحق السماء ، مغبوناً جد مغبون .

واشتد الضيق بصاحبه وأعلى الثمن على كره منه ينهى بلحاجة
الشيخ ويقطع حبل ثرثرته الحمقاء .

فجبهه « المغربي » بقوله ويداه بالكتاب مشغولتان تربطانه
كأنه طفل يهدده ويتلطف به :

صدق بالله ... إنها صفقة لى خاسرة ... لقد قبلت إعزازاً
لمنزلتك عندى... لغيرك ما فرطت فيه ولو بدل لى ضعف ما قدرت .
فشكره صاحبه وهو يتسلم الكتاب بأجزائه الخمسة عشر ،
وانطلق بها فسيح الخطى يدف بجناحيه كالطائر وقد ظفر بصيده

يعجل به إلى عشه .

وتصرمت ليال .

وتوالت أيام .

وفجر يوم من أيام الصيف ، شوهد « عنتر المحلاوى » يبرز إلى المطار ، ويرتقى السلم إلى بطن الطائرة يأخذ مجلسه منشرح الصدر مشرق الحيا .

ودوت المحركات ، ودارت الطائرة دورة ، وثبت بعدها وثبة عالية رفعتها دفعة واحدة إلى أجواز الفضاء ، فانسابت في طيرانها ، تغالب الريح في جراءة وإصرار .

وانسرح صاحبنا في تفكير ، يتحدين ساعة يلتحم وأرض الأندلس الحبيب في مصافحة جياشة ، ولقاء منشود .

كم من ليلة قضها مسهداً بصحبة الكتاب الأندلسى ، تختلج في نفسه شتى الأخييلة والأحاسيس .

شد ما تاقت نفسه إلى أن يستجلى ما هنالك من حضارة أينعت ، تتحدى أحداث الزمن وتصاريف الأيام .

ويدوى في الطائرة صوت القائد يبين للراكبين ، أن الطائرة تحلق الآن فوق الهدف المأمول .

ويضطرب صاحبنا في جلسته ، ويميل على طاق الطائرة يلتقى

بأنظاره في الفضاء، وكأنه أدلى بشص يتصيد به ضالته من أعماق الهواء.
وتطالعه الأندلس في ثوب مفوف كغداة متأنقة تجتذبه من
بهاء ورواء .

وتهبط الطائرة .
ويغادرها صاحبنا وثاب الخطى وكأنما هو نحلة ناشطة ،
دائبة الحركة والدوران .

بيد أن غادة اليوم غير غادته الشرقية التي ألفها وأنس بها
على مد الليالي وكر الأيام ، تسعده بسمرها الطلي ، وتشدو له
شدوها الحنون .

ما للغادة اليوم تلوى لسانها ، تغمغم وتجمعجم في رطانة
سقيمة لم يالفها لغة حديث بينهما من قبل ؟
أين هي من ذلك اللسان المستقيم الذي طالما أسكره بعلوبة
تعبيره وترنيمة أنغامه ؟

ما للغادة نضت عنها ثيابها الفضفاضة يحلها وشى كوشى
الربيع ، واكتست بديلاً عنها لبوساً أعجمياً ، وإن كان في
مظهره القشيب ، ما فقى يحتفظ بفضلة ناصلة من طراز شرق
رشيق ، فالمغاني تتوضح لناظره على امتداد الطريق متحشمة
تستتر خلف شملة من أسوار تحيط بها وتصونها كأنها أحراس .

ينفد منها هو فتحبيه حديقة حالية ، تتوسطها فوارة مرمرية
ينبجس منها الماء، وقد تحلقت عليها الأشجار والورود ، مختلفة
الألوان والشكول ، وعلى جنبات الحديقة قبوات تهدى الخطى
إلى الحجر والحدور .

رباه ! أأتكون الطائفة قدسخرت منه وغررت به فأضلته السبيل ؟
إن عينه حيرى بما تراه من آثار مطموسة المعالم حائلة
اللون لا تلائم ما تمثله لها في كتابه من عظمة وجلال .

لم يكن يدور في خلده أن غادته التي صافته زمناً ستقدم له في
يومه كأساً غير التي نهل منها فأذكت روحه .

لقد غدت امرأة صليقة القلب ، جامدة الملامح ، وقد
تألمت على التراث الذي ورثته لم ترع إلا ولا ذمة ، بل انبعثت
تركل وتبطش في طيش جنوني وكأنها إعصار خراب وتدمير .

وقاده تنقله إلى قرطبة الخالدة حاضرة الأمويين ، ودرة
تاجهم الأغر .

ماذا !! إنها ما برحت على عهدا ، تردد من صدر
مقرور ، أنفاس أمس الغارب ، كشيخ فان طحنته الأيام
وهدت عزمه العلل ، فأمسك عن المضي ، ينكمش على تراثه
يحافظ عليه ما أمكنه الحفاظ في يأس وقنوط .

أيهرب من غادته ، ويقفل راجعاً إلى كتابه يحتجى عنده
ويأنس به .

ولم تدم حيرته ، فقد حثه الدليل في زيارة إلى المسجد . . .
مسجد قرطبة التليد .

هرع يطلبه وقد استبشر باللقاء .
دخله مشبوب النفس نشوان الفؤاد .

وما كاد يلتقي بالحراب حتى ألفاه حبساً خلف نطاق من
سياج وقضبان ، يطالعه من وراء محبسه ، متطامن الهامة ، ذليل
القسمات ، على الرغم من طرائف النقوش التي تزين جبينه في
خطوط موشاة ، تارة تستقيم وأخرى تتشابك وتلتحم لتتنافر
وتشط دون أن تفقد وحدتها الفنية الرائعة .

إليه أيها المحراب . . . إن صمتك أنساني ما حملت من
نحيات وأشواق أنثرها في حضرتك آيات مودة وحب وإكبار .
إنها من أخذان لك في قاهرة المعزّ ودت لو تم بينها وبينك
تلاق واجتماع على صعيد موحد . . .

لماذا لا تسعى إليها ، تشهدهم تلك البردة الموشاة التي
تسدل على منكبيك تتحلى بها في تألق وبهاء .
سوف يحتفون بك لا مرية ، وسوف يطيب لك إن أنت

قررت الرحيل المكث والمقام .

أراك تختلج اختلاجة تألم وضيق واستنكار .

إني أراك ذليل الحال خلف السياج والقضبان .

أ أصبحت مجرد طرفة من طرف الفن تحج الجموع الحاشدة

إليه مسلاة وملهاة ؟

فيم صمتك بحق السماء ؟

ألم يبق فيك بقية من حمية الشباب ؟

تكلم . . . هداك الله ورعاك .

وهنا مزقت سكون التناجى ، رنات ناقوس ، تشابكت بها

ترنيمات أرغن ، تصاحبها ترتيلات وأناشيد ، فجمد صاحبنا في

وقفته ، وتملكته رعدة ، واضطربت شفثاه ، وغامت عيناه ،

وعلى حين بغتة ، انبثق صوته يدوى بتكبيرة الصلاة ، فتناثرت

الكلمات في رحاب المسجد قوية الجرس ، وكأنها مع صدى

صوته أصوات المصلين من أهل الأندلس في عصور سوالف ،

بعثت من مراقدها تردد في إيقاع موحد : الله أكبر ، فما لبث

صوته أن تعاظم وتضخم ، وإذا هو ينخر راکعاً يتشبث بالسياج

والقضبان الضاربة نطاقها حول المحراب ، يهزها في عنف ، وكأنه

يبغى أن يقتلعها ، يمهّد للمحراب الحبيس سبيل تحرر وفكاك .

العقبة

جلس السائق « مدبولى » إلى عجلة القيادة من سيارته العجوز ، يجريها على الطريق العريض ، إذ يتحوى أمامه على مد البصر كالرقطاء فى انسيابها تنكمش وتنسبط ، فلا يملك هو إلا أن يروض سيارته ، مطاوعاً فى حركاته ليات ذلك الطريق ، وعلى جانبيه تترامى الحقول شاسعة تكسوها خضرة ونضرة.

كان هذا الصباح على غير المألوف من عاداته ، جهم السحنة ، عاقد الجبين ، يضرب فى صمت وسهوم ، وبين شفقيه لفافة تبغ رخيصة ، يجذب منها الأنفاس وكأن دخانها المتصاعد هو أنفاسه المكروبة ، ينفثها من صدره ، تسرية عن فؤاده الكليم.

كيف لا وقد ألفاه الصباح الندى ، مقتعداً سريره الخشبي من حجرته المعتمة ، وقد سهر عامة الليل ، تتوسد حضنه المكتنز صغيرته « مبروكة » صريعة الحمى ، تسرى فى أوصالها رعدة ، فكأنها عصفور يذف بجناحيه مبتغياً على ضعفه الفكاك والانطلاق ، وعن كذب منه زوجه وقد تداخلت فى خمارها الأسود

وجلبابها السابغ كقطعة من الليل ، لبثت حيث هي جامدة
لا تحسن من أمرها إلا تنهد الاستسلام ، وفي مآقيا تنحير الدموع .
كان ذلك المشهد يتخايل أمام عينيه وقد جمعت السيارة
جمحة أفقدتها الاتزان ، فشدد « مدبولي » قبضته على عجلة
القيادة ، وهو يفيق من غفوته ، نائياً بالسيارة عن مخاطر
الطريق ، وقد ثارت ثائره ، فانبعث يسب ويلعن ، وما تمالك
وهو في قمة غضبه إلا أن يبصق بملء فيه ، بصقة عريضة ،
ينعى على الطريق اختلاله .

وسرعان ما ألجم سيارته يحد من سرعتها ، فما لبث أن
تهادت بمجهدته تتعثر خطاها بتموجات الطريق ، ما تلفظها فجوة
حتى تتلقاها أخرى ، وكأن الطريق يستبين له ، وجه عكر
تفشّت في نواحيه الغضون والتجاعيد .

حقاً إن الطريق ليفتقر إلى يد حاسمة تتولاه وتحمه من
اضطرابه وفوضاه . إنه وهو على حاله هذه ، يشكل على لقمة
العيش ، ولا ريب ، الخطر كل الخطر .

ما أحوج « مدبولي » إلى سبيل هين ميسور ، يتلقى سيارته
وديفة غالية يصونها ويحرص عليها ، ضامناً له الرزق في سماحة وأمان .
لقد اعتاد « مدبولي » أن يصاحب « الطريق العريض »

مع مطلع كل فجر ، بعد أن يؤدي الصلاة حاضرة ، فيعرج على التربة ينعش سيارته بما يسكبه عليها من الماء ، ثم يعرض خدماته على المسافرين عند الموقف الكبير ، مرتضياً ما يقدم إليه من أجر دون مما كسة ونزاع .
فليسر على بركة الله وهديه .

لقد يسر الله رزقه فازدهرت تجارته ، وعمه خير ، وما عثم أن استبانت على السيارة العجوز مخايل تلك النعمة وذلك الخير ، فنضت عنها أسماها واكتست برودة الشباب النضر ، وقد رصعت جوانبها حكم وأمثال تزيدها نضرة وبهاء .

وأصبح « مدبولي » يزهو بسيارته ، يسوسها في رفق ويحافظ عليها حفظ الأم لوليدها ، فلا يفتأ يستشف وجه الطريق في تيقظ وانتباه حتى أضحي به خبيراً وبخباياه عليمًا ، كقارئ كف يطالع من بين تعاريج الخطوط كوامن الأسرار في تمكن واقتدار .
إن ما يخيفه من الطريق فجوة تتصل بها عقبة متورمة كسرطان خبيث يتوعد الغافل لمخطر محقق وهلك وشيك ، فالطريق يخفيها في حضنه عند موقعه المرتفع حتى لتكاد تخطئها الأنظار .
لأنها في تنفخها وانبعاجها تنكر مرأى السيارات ماضية إلى وجهتها تبتلع الطريق وتطويه أشد ما تكون حيوية ونشاطاً دون

أن تنصيد إحداها ، تصرعها بما تنفته على الطريق من سم زعاف .
 لا غرو أن يحمل السائق « مدبولى » وليجة نفسه لهذه
 الحدة المتورمة حقداً دفيناً ، ولا غرو أن ينعقد بينه وبينها صراع ،
 حتى أصبحت شغله الشاغل فى ذهاب وإياب ، لا يفتأ يلتزم
 الحيلة والحذر مجتهداً فى معركته اليومية حواسه جمعاء : العين منه
 ثاقبة ترصد الطريق فى تبصر ، واليد قابضة على عجلة القيادة
 فى إحكام توجه السيارة وجهة أمن وسلام ، والقدم آناً تحت
 السيارة على إسراع ، وآناً تبطئ بها فى تحرز واحتراس .
 إنه كلما تخطاها حذجها فى استعلاء وكأنه يهمس لها فى
 سخرية : لن تنالنى بسوء أيتها الحدة الشوها ، ويخاها تبتسم له
 فى فتور متوعدة إياه فى هدوء دون أن تثير حولها الظن والارتياح .
 لا ريب أنها باقية بقاء الطريق ، فجذورها متأصلة فى
 أحشائه يتعدران يسبر لها غور ، وأن يصل إليها مبضع جراح .
 ومر الوقت وشيكاً والسيارة ماضية فى مسيرها تتعثر ،
 و « مدبولى » يتوسم الطريق مبتئس الملامح ، يواصل التفكير
 فى مرض صغيرته ، وقد شعر بها تشبث به عندما نحاها إلى
 زوجته ، وكأن لمسات يديها البضتين جمرات تحرق صدره ،
 فلا يلبث أن يزداد من عبوس وجهامة ، يجتر أحزانه ، ويقاوم

خدرًا انساب في أوصاله يكاد يطبق أجفانه .

وفيا هو كذلك ، إذا بالسيارة تصدم صدمة قوية ترفعها ثم تخفضها لتتحرف بها في عنف على حافة الطريق ، فتتقلص في مكانها ، ومن خيشومها يتصاعد بخار موصول هو زفرات تحسر لما نابها من توقف وانكسار .

ويزايل « مدبولي » مكانه من القيادة ، يتفقد السيارة نثر النفس ، زائغ البصر ، مهوش الحركة ، لا يثبت على حال ، فتطالعه السيارة مهیضة الجناح ، وقد جمده محركها يلفظ في عناء آخر الأنفاس .

ولا يمالك « مدبولي » إلا أن يرتعى عليها بجرمه الثقيل يحتضنها وقد سرت فيه رعدة عارمة ، وكأن نهاره انقلب ليلا ، وكأنه على سريره الخشبي من حجرته المعتمة ، وعلى صدره ترقد صغيرته « مبروكة » ترجف وتهلئ من وقدة الحمى ، وقد بسط لها صدره كله ملاذ أمن وسلام .

وينخرط « مدبولي » ينشج في حرقة وهو يبصق ويبصق على الحدية المتورمة ، على خين انبعثت قدمه تدق رأسها في عنف واهتياج ، وكأن الحدية المتورمة في ثناؤها ثغر يبتسم له ابتسامة زهو وانتصار .

ريحان القبور

يطالعنا يوم الوقفة ، من كل عام ، فى ضجة ما بعدها
ضجة ، متجدد الشباب ، مشرق الحيا ، وقد نضاً شملة السكون
الحامل ، واستبدل بها لبوس الحيوية واليقظة .

ما إن يهل علينا ، مع النهار الوليد ، حتى نهتف من الأعماق
متهللين لمقدمه ، وفق ما رسمه من شواغل ، وما سنه من نواميس .
وإلى أتمثله ، فى موكبه العظيم ، أميراً من هؤلاء الأمراء
المستبدين ، انبعث يفرض علينا سلطانه فى إصرار وعناد .

وما أسرع أن ينتهب ما بأيدينا من المال ، فإذا المتاجر
تستنزف قوانا فى مشتريات يعدها الأمير من لوازمه ، دون أن
تأخذ بنا ذرة إشفاق .

والويل كل الويل لمن يعصى أمر الأمير أو يخرج عن
طاعته ، فلا يعتم ، أن ينقلب اليوم البهيج ، مناحة ، يسكب
فيها أهل المارق ، دموع الأسى والتذمر والإنكار .
مساكين هؤلاء المتزوجون .

أحمد الله ، أنى ظلت فى مأمن من المرأة ومنأى ،

أعيش ، كما تعيش القواقع فى تفرد ، أنعم فى مثابتي بأنس وصفاء .
محبول هو من نعت النساء بصفات الضعف ، والدعة ، واللين .
لأنهن ، أعزك الله ، نمرات متمردات ، دائمات الشكاية
والتأفف ، همهن الأكبر فى يومهن الأطول أظفارهن .

تأخذهن ، إن اجتمعن أو تفردن ، عاكفات يقلمن
الأظفار ، على رأس الملك الدقيق ، كما يشحذ السنان الدرب ،
نصل السكين ، على حجر المسن العريض .

لأنهن دائبات العناية بأظفارهن كالجندي الحصيف ،
يظل عاكفاً على سلاحه ، يهيئه ليلتي به ، دعوة الداعى ،
متى نفخ فى البوق ليعلن التطاعن والقتال .

وإنك إن تساءلت لماذا يؤثرن الحضاب الأحمر يطلين به
شفاههن ، دون سواه من ألوان الزواق ، أجبك فى براءة الذئب
من دم ابن يعقوب ، والدهشة آخذة بهن ، إنه أداة زينة
وتجمل . . . ليس إلا .

لا . . . لا تسمع لهن .

لأنهن يموهن عليك .

وما اللون الأحمر إلا رمز لدم الفريسة المسفوح ، يندين به

شفاهن الظامثة إلى فلك وانتهاش .

مساكين هؤلاء الآباء .

يحسبون أنهم خالدون ، متى نجم لهم في الحياة نبت .

يظنون ، وما أسخف ما يظنون ، أنهم في أولادهم يعيشون ،

وفي أولاد أولادهم ، هم مستمرين متجددون .

أليست هذه الفروع ، وتلك الجزئيات ، من عنصرهم

الأصيل ، يتوارثون عنهم خصائصه المميزة ، جيلا بعد جيل .

هذا هو الخلود ، بحسب زعمهم ، عين الخلود .

يا لهم من جناء رعايد ، يتهيئون الموت وجلة قلوبهم ،

فيخلقون هذا الوهم ، يتعززون به عن الموت ، ويقصون من

دنياهم أشباح الفناء .

الموت حقيقة الحياة الكبرى ، والفناء طبيعة الوجود الراسخة ،

أيها الجاهلون .

أحمد الله ، أنى ما زلت قوقعة ، لم ينبت من صلبى عود أى عود .

وقانا الله الذرية ، صالحة أو طالحة ، فليست هى إلا شر

الحياة ، ووجهها المكفر العبوس .

أليست هى بطونا خاوية تطلب الشبع والامتلاء ؟

أليست هى أجساماً غارية تطلب الدفء والغطاء ؟

أليست هي ، بعد ذلك ، بحاجة إلى تربية وتنمية وإلى
صقل وإعداد ؟
أليس كل هذا نفقات تلو نفقات تنوء بها الكواهل وتندى
لها الجباه ؟

مساكين هؤلاء الآباء بما يرهقهم به يوم الوقفة من مطالب
مسرقة تسلمهم إلى إعياء وضنك .
وعلى الرغم من حياة الاقتصاد التي أحياها ، وأنا فرد أعزل ،
أراني ، في هذا اليوم ، وقد خرجت نفسي عن طاعتي ، كدابة
حرون تأبى السير في طريقها المرسوم .
لا أغرو إذن ، أن ألتى ذلك اليوم ، يوم الوقفة ، متكرهاً ،
أستنكر منه تطاوله على نقودي ، يبعثر في السوق ، خلال
ساعة ، ما اقتصدته في شهور .

وتشهدني القرافة ، مع الأصيل ، أسلك دروبها العفراء ،
محتضناً « فطائر الرحمة » يطويها دثار من ورق شفاف ، كأنها
الوليد توسد حضن أمه ، مدرجاً في لفائف من حرير ، ومن
خلني رجل بطين ، قصير القامة ، مكثنز العود ، يتقنى أثرى ،
متلاحق الخطو ، وقد توجب رأسه سبط الفاكهة والتمر ، على
حين تدلت من يده طاقات الريحان ، يحسبه الناظر إليه ،



ثوراً تهادى بين القبور : له من سحنته لغد يترجرج على صدره
العريض ، كلما تعثرت قدماه بفجوات الطريق ، وله من
عوده بدانة مفرطة ، ومن مشيه تخطر متزن وثيد ، وله من عينيه
حدقتان تدوران في محجريهما ، في تلصص ، وعلى شفثيه ،
يتحلب ريقه كما يتسائل لعاب الثور لمراى أعواد البرسيم النضير .
وما إن يحتوينى والرجل فناء المدفن ، حتى يحاصرني حشد
العفاة ، منبسطة سواعدهم ، يستجدون العطايا في هرج وهياج
كأنهم قطع الذئاب الجائعة ، تحلقت على الفريسة ، تعوى
عواءها الكثيب .

وسرعان ما أذفع إليهم بما جلبته من فطائر ، وفاكهة ،
وتمر ، حيناً أحاسنهم ، وحيناً أخاشنهم ، لا يفوتنى أن أعمل
فيهم قبضتى ، محتفظاً لقدمى في المعركة بالنصيب الأوفر ،
لأفك عنى حصار ذلك الطوق العصيب .

ولا تسأل عن الرجل الثور ، وسط هذا الهرج والمرج ،
فإن تفقدته عينك ، ألفيته منكمشاً في ركن من الجبابة قصى ،
خلص إليه من المعركة ، كما تخلص الشعرة من العجين ، وقد
أطبق فكيه على فطيرة سمينة ، اختلسها في غفلة منى ، يلتهمها
هانئاً ، وبين القضة والقضة ، يعتصر ليمونة حلوة بين

شفتيه ، يرتشف رضاها الشهى ، يرطب به حلقة الغصان .
 فإذا انفض الجمع ، انصرفت إلى قبور الراحلين الأعزاء ،
 أنثر عليها أعواد الرياح ، وعن كئيب يترجع قارئ ضرير ،
 يرتل آيات الله المحكمات ، أنا يتعوج ذات اليمين وذات الشمال ،
 وأنا يتقاصر ويشرب ، على إيقاع صوته الجهير ، فأجلس
 إليه أستمع ، مطأطئ الرأس مسبل العينين ، أتمايل في جلستي
 تمايل مستمع طروب .

ولا ألبث أن أطيروا إلى عالم الخيال ، فيرتد في الزمن إلى عهد
 خلا ، أعيش فيه أنسه وعبوسه ، وأنا ما زلت في مكاني قاب
 قوسين من اللحد اللحد الذي سوف يضمني حتماً إليه .
 وكأنني أحس بالقبور تنتفض انتفاضة الحيوية ، تخلع عنها
 العفاء والصمت ، وتندفع في حركة وحديث ، وكأن شريان
 الحياة لم ينقطع عنها ، فهي تسعى بين يدي سالف سعيها ،
 وكأن ظلام الفناء لم يغيبها عن الوعي ، طرفة عين .

يا للذاكرة من مستودع عجيب !

إن آلات الحفظ والتسجيل ، في عصرنا الحديث ، إذا
 قورنت بتلك الذاكرة ، تصاغرت وعجزت أن تكون مثلها في
 حفظ ما استودعت من العطب والضياح .

إن ودائع الذاكرة ، تظل خالدة في معناها وجوهرها ،
تساير الزمن وتصابره . . .

ورفعت رأسي أمسح دمة حزن فرت من عيني .
واستقبلت العراء على غير عمد ، فألفيتني أصفاح وجوها
جاءت إلى المقابر مثلي ، تحيي موتاهها من الأجزاء الراحلين .
وتعثرت نظراتي في تطوافها بقبر ، هين المنظر ، قائم وحده ،
بين المدافن المشيدة ، لا سقف يظله ، ولا جدار يحميه ، وقد
تأكلت زواياه ، وتهورت جوانبه ، وتهوى شاهداه ، فلم يبق
منه ، إلا أنقاض أحجار مثلثة ، كأنها أسنان نخرة صفر ،
انفرج عنها فم محطوم .

لم يكن حول القبر سوى كلب أسود شريد ، سعى يحوم
حول الجلدث ، ويتشم جداره ، وقد امتد خرطومه البليل إلى
فجوات القبر يتفقدتها في هوس .

وما عثم أن اطمأن إلى إحداها ، فكف عن سعيه
المحموم ، واقتعد لها يقضى حاجته آمناً ، وقد تقوس ظهره ،
وتقلصت عضلاته ، واشرب رأسه يرأري بعينه ، بصافح خطرات
النسيم دون أن يحس زاجراً من يد قوية ، أو صوت غضوب .
وهزني ما رأيت هزة ، زلزلت كياني ، فقفزت أعدو نائراً ،

١٠٣

أتوعد الكلب فى صوت جهورى ، وتناولت حجراً رجمته به ،
فأصابه فى رأسه ، بين عينيه ، فانتصب يعدو هارباً ، يعوى
عواء التوجع والغوث ، وقد أدلى أذنيه ، وضم ذيله بين فخذيه .
ومثلت أمام القبر ، ووقفت فى صمت أتملاه ، ودارت فى
رأسى خواطر .

حقاً ما أحزنه من قبر بين القبور .
أين هو من هذه الأجداث التى تزيئها الورود والرياحين ،
وتؤنسها بالتعهد والزيارة : الزوجة الوفية ، والذرية الصالحة .
أكللك مصير القبور حين تفقد تعهد الأهل والأقربين ؟
يا لله ! ماذا أقول ؟

الزوجة . . . الذرية . . .

البنون . . . البنات . . .

وتراجعت عن القبر مشئت الفكرة . . . تائه النظرة . . .
وقد عرئى قشعريرة ، واستبدت بى رهبة ، وقفلت إلى الدروب
المتربة ، أفسح من خطاى ، لأطلب الطريق الممدود بمنأى عن
مثابة الموت والعفاء ، أكاد أصرخ : لا أريد أن أموت . . .
أريد الخلود . . . الخلود . . . كل الخلود !

خمسة قروش

إلى صديق ع. ر. مع الحب والإعزاز

هى طفلة لم تتخط بعد عهد التفتح والازدهار ، ضمن عليها
القدر برفيق تأنس به ، فظلت وحيدة أبويها تعيش فى كنفهما
عيشة العزلة والانفراد .

دنياها التى ألفتها : عم كسيح قيد الشال أوصاله ،
لا مشغلة له فى يومه الأطول . إلا الشكاية والسخط ، وعمه اغتالت
المنية عائلتها فخلت لطفلة أخيها ترعاها فى صرامة وحزم ،
فما لبثت أن فترت صلات الطفلة بعمتها لما تلقاه على يديها من
شدة وعنت .

وكانت الطفلة تلتقى فى الحين بعد الحين خالة لها عقيماً لم
تكتحل عيناها بمولود بعد ، فصبرت على حرمانها تمنى النفس
حتى تبدت فى سماؤها تلك الطفلة ، فحومت حولها تحويم الحمام
على فرخه الصغير .

لم يكن مستغرباً من الخالة أن تبسط لابنة أخيها جناح

حنانها كلما قدمت لزيارتها ، ولم يكن من المستغرب من الطفلة أن تسعى إلى خالتها تطلب عندها الأئس والسلوى ، فاجمعتها جلسة مشتركة إلا ارتدت بالخالة السن فتبدو وكأنها صبية لها ما للصغار من خصال ، وفيها ما فيهم من مرح ونزق .

واستقر في ذهن الطفلة أن خالتها ما هي إلا خدين تلعب معه وتسمر ، إذ كان من المحذور عليها أن تشارك لداتها من صغار الحى الانطلاق والمراح ، فقد أزمع والدها أن ينشئها تنشئة طابعها جد واتزان .

لا غرو أن تنبت بين الخالة وبنت أختها أواصر ألفة سرعان ما تطورت فأضحت حباً عارماً يحمله كلاهما لصاحبه دون موارد أو خفاء .

واعتادت الطفلة كلما باعدت شواغل الحياة بينها وبين خالتها أن تجلس إلى « الهاتف » تناجيها في ثرثرة موصولة ، وتنمق لها لولحاً يستوعب كل ما وقع لها من حوادث ومغامرات ، فتظفر من خالتها على متن الأثير بالمديح والإطراء في حديث مؤنس ترصعه نكات ودعابات .

ويوماً أسر إليها الهاتف نبأً أزعجها .

ذلك أن خالتها حليقة الفراش مقيدة إليه بأمر الطبيب .

وفى حجرة المريضة وقفت الطفلة على سر المرض ، وهى
تنصت إلى صوت خالتها يترنم بقوطا ، وقد التمع وجهها من
بشاشة وإشراق :

عما قريب يكون لك رفيق تمرحين معه وتلعبين .

وانطلقت الطفلة تسأل وقد أثار قول خالتها فضولها :

متى يكون ذلك . . . أفى غد أظفر به ؟

— لا يا حبيبتي . . . بعد بضعة أشهر .

— أيمكننى أن أراه ؟

— لم يحن الوقت بعد .

— وأين هو الآن ؟

فأومأت الخالة إلى جنبها تقول وقد التمت عيناها وتورد
خداها من اعتزاز وزهو :
هنا .

وامتدت يد الطفلة إلى خالتها تتحسسها فى رفق وتهيب .

وابتسمت الخالة تسألها :

ماذا تريدن أن يكون المولود . . . بنتاً أم غلاماً ؟

— بنتاً . . . نعم بنتاً .

واتفقا فيما بينهما على نوع المولود دون أن تبدى الخالة أى
تمنع أو اعتراض .

١٠٧

فليكن ما يكون . . . المهم أن تظهر الحامل بمولود تسعد به
وتستبشر .

ويوماً دلفت الطفلة إلى خالتها تحمل بين يديها صرة
صغيرة ، وتقربها من سرير الخالة تفك عقدها وهي تشقشق بقولها :
هاك بعض الملابس . . . نخطها بيدي .

وأنشأت تعرض على خالتها مزقاً هينة لا تصلح لبوساً
إلا للعرائس والدي .

لم تمالك الخالة إلا أن تحتضن الطفلة تطبع على خدها قبلة حافلة
ولسانها لا ينفك يربط مسامع الطفلة بكلمات التشجيع والإعجاب .
وتصرمت أيام .

وجاءتها الطفلة تزورها على المألوف ، وما استقرت بجانب
خالتها على السرير ، حتى دست يدها في يدها تقول :
هاك خمسة قروش . . . هدية للمولود .

فابتسمت الخالة ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنت الطفلة
تقبلها في شوق مزيد .

وقهقهت الأقدار وهي تضرم النار في ذلك الحلم السعيد ،
فما نشب أن تناثر رمادة في رحاب الفضاء .
أجهضت الخالة .

وتبين للطفلة من أمشاج الأحاديث أن أمنيته خنقت في

مهدها ، وقد غيبتها الأقدار في عالم بعيد المثال . . . في جب
سحيق تسد فوهته جنادل صماء .

ومنذ ذلك الحين حبست الطفلة لسانها لا تجريه بذكرى
ذلك الأمل المفقود .
وطويت أسابيع .

وكانت الطفلة جالسة تثرثر لحالتها ثرثرها الأنيسة .
وعلى حين بغتة كفت عن الكلام ، وواجهت حالتها
تهمس لها بما كان يشغل بالها ويمض خاطرها :
أين خمسة القروش . . . لم يعد لك بها حاجة !

وأحست الحالة بطعنة تنفذ في أعماقها ، لكنها كظمت
ألمها ، وقامت متناقلة إلى حجرة نومها ، تستخرج من صوان
الملابس صرة المزق وكانت النقود بينها ، فأخذتها وعادت إلى
الطفلة وهي تجتلب انفمها بسمه متكلفة ، وتقول :

هاك النقود يا حبيبتى . . . تستطيعين أن تبتاعى بها
ما ترغبين فيه من حلوى .

ووثبت الطفلة إلى الباب خارجة وهي تتمثل ما سيقع عليه
اختيارها لتشتريه ، على حين انكفأت الحالة على وسادتها تلوذ
بها لتخفى في طياتها عيناً تعجرت فيها الدموع .

ساعة راحة

استلقت « سنية » تتقيل بعد ما أصابته من غداء دسم ،
 واستوى زوجها على مقعده الوثير وقد تحرر من رباط الرقبة ،
 واستبدل بحذائه خف البيت المريح ، وما إن اطمأن في مجلسه
 على المقعد الرحيب ، حتى حانت منه التفاتة إلى جريدته ،
 فنشرها بين يديه ، وأخذ ينقل نظراته بين سطورها يثلقط الأنباء ،
 فاطر المهمة ، متخاذل الأوصال ، وقد تدلت من فمه لفافة تبغ
 يتشكل دنائها دوائر وحلقات .

وأظل الزوجين صمت موصول ، وكلما قلب « عزيز »
 صحائف الجريدة خشخش تشوب رونق السكون .

وكانت أسجاف النوافل مسدلة تحجب وهج النهار ،
 فأضفت على الحجرة جوًّا من رخاوة وهدهو ، وغازل عينيه
 طائف الكرى ، فما عم أن استجاب له في رضا واستسلام .

ومضت الدقائق يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، فتجمعت في
 حساب الزمن ساعة ، وما انفك الزوج غائباً عن العالم المحسوس

ينبعث منه غطيط ملحوظ .

وتتابعت حشرجة الزوج تحاصر مخدع الزوجة ، وتنفر عنها للديد النعاس ، فاعتدلت تبصر زوجها ما فتئ على كرسيه ممدداً ، والجريدة تتدلى من يديه حتى تلامس الأرض ، وخصلة شعره تتشعث على جبهته ، وفه منفرج عن ذلك الغطيط المسموع ، فاستشعرت بعض الضيق ، وجالت نظراتها في عرض الحجر على غير هدف كأنما تتلمس في أثائها مسلاة تعينها على قتل الوقت ، ريثما يستيقظ رفيقها النشوم ، لتعاود معه الحياة .

وأولت وجهها سقف الحجر ، فما وقعت عليه عيناها ، حتى تشبثت به لا تقوى أن تزور عنه ، كأنه يشع تياراً كهربياً يجذب إليه البصر .

وكان من المألوف لديها ، أنها إذا علق نظرها بالسقف استبد بها سهوم يدينها من عالم الأحلام . وسنحت لها فكرة ، فكرة لطيفة شائقة ، فلم تطق أن تركها في تلافيف رأسها الفضي ، فتنحنت مرات تقطع على زوجها نومته ، فاضطربت أوصاله يتنبه ، وما هي إلا أن فتح عينيه ، وأطلق تناوبة كبيرة وهو يهمهم :

أنت يقظى . . . ماذا فى الأمر ؟

فقال له الزوجة تداعبه وتزجى ضحكة لينة عابثة :

هبطت على فكرة . . . أقسم لك إنها لا تخلو من طرافة..

إن سقتها إليك سررت بها لا ريب . . . نستطيع لنا فرصة هـو
ومؤانسة . . . سأحدثك :

— تحدثنى ؟

— أمامنا متسع من الوقت ، ولم تحن بعد ساعة الخروج . . .

ففرك الزوج عينيه فى دهشة ، وحملق فى زوجته يتبين

تلك الفكرة التى طرأت على غير موعد ، فقطعت عليه فترة
الدعة والاستجمام . . .

وتهيات الزوجة للكلام ، وإذا هى تقول :

ماذا يا « سوسو » أما زلت نائماً . . . ألا ترعبنى سمعك ؟

وهز الرجل كتفيه حائقاً ، وأقبل على نفسه يللم ما تبعر

من شأنه ، فنفحى الجريدة عنه ، وعمد إلى خصلة شعره النافر

يسويها ، ليستمرئ تلك الفكرة الطريفة التى هبطت من السماء

على زوجته ، لتنصب على رأسه شقوة ونقمة . . .

وسارعت الزوجة تكاشف رجلها بذات نفسها فى تحمس ،

وهى تستجمع على السرير ، وتعتمد ذقنها بإحدى ركبتيها ،

وعيناها يتلألاً فيهما دهاء :

هب أننا لم نكن متعارفين ، وهيات لنا المصادفة أن
نجتمع . . . فالتقينا . . . أين يا ترى ؟ . . .

ودارت « سنية » برأسها تفتش عن عش لائق ، وبعد لأى
خرجت من صمتها تقول :

وجدته . . . دار الخيالة . . . اكتشفني أنت وأنا أبتاع
تذكرتى لمشاهدة العرض . . . كنت تلينى فى الصف عند
الشباك . . . فنتتكت وسامتى وهمت بى أشد هيام . . . تعمدت
أن تظفر بالمقعد الملاصق لمقعدى . . . تحققت لك الأمنية
فجلست بجانبى . . . هذا هو الافتراض . . . ساذج بسيط
كما ترى . . .

وتحمل الزوج يزجى بكلمة ، لكنها تابعت تقول :

يحق لى أن أسألك إذن ماذا كنت فاعلا . . . أتحاول
ملاطفتى والتودد إلى . . . ؟ أتقبل على " مطنبا فى إطارى مشيداً
بطلاقى . . . ؟ أتتحين الفرص للامسة يدي تبتغى بها الوسيلة
إلى مجاذبة الحديث . . . فإن زجرتك تصنعت الأسف ،
وأطلقت لسانك بكلمات استعفاء . . . أكنت واجداً نفسك
مسوقاً تختلس إلى " النظر تشقى به قلبك الوطان ؟ . . . بماذا

١١٣

تجيبى ... ؟ تمنى ... كل كلمة تنفوه بها لا ريب
محسوبة عليك ...

واستمع « عزيز » إلى زوجته وهو يتميز من الغيظ ،
فأطلقت « سنية » ضحكة طائشة ، وغمغمت :
... عند الامتحان يكرم المرء أو يهان !
وشفعت قولها بابتسامة ساخرة .

وأطبق عليهما الصمت ، وانصرف الزوج يحك رأسه بأذنيه
يفكر فى إجابة لا تأخذها عليه زوجه ، فتعكر بها صفو يومه
وأحد الرجل فطنته ، غير أنه ألقى نفسه صامتاً لا ينبس ،
فنهضت إليه زوجته فى غلائلها التى تشف عن جسدها البض
وعودها المشيق ، فأطال إليها النظر يتملاها وعيناه تفيضان
بالأحلام .

وأدركت الزوجة ذلك منه ، فرفعت صوتهما تقول والبشر
يتوضح على محياها :

ستحاول حتماً مغالتي ... ستسير إلى بكلمات المديح
والإطراء ... ستتحين فرصة انكماش النور لتلمس يدي ...
ستتصرف مثل أقربك ولداتك ... واهاً منكم معشر الرجال .
وأمسكت هنيئة تجتلب أنفاسها ...

حقاً إنه لرجل مثل سائر الرجال . . .

ماذا يعصمه . . . ؟

لن يكون إلا كذلك ينساق في مغازلة رخيصة ، لا يحجم ولا يحتشم .

واستبد بها هذا التفكير الحائر ، وانقلب زوجها هذا الرجل الكريم في عينها عابثاً ماجناً غير مستقيم ، وشاعت على وجهها مسحة من كآبة واغتمام . . .

واستبان الزوج ما تعانيه « سنية » من هيجة وقلق ، فأقبل عليها يبغى كلاماً ، ولكنها صرخت :

دعني أتم لك حديثي لم تكن تفوتني خفية نفسك ومكنون حيلتك . . . عهدتك ونحن في الطريق أو في محفل جامع تقلب النظر في الأوانس الكاعبات تكاد تبتلعنهم بنظراتك العطشى ، ولسان حالك يقول : حرام أن يغفلوا رقبتي برباط الزواج مبكراً . . . وكم مرة يطالعي وجهك وقد شاعت فيه أمارات غم وتحسر . . .

وأراد الرجل أن يخرج من صمته ، وقد ضاق ذرعاً بذلك الافتراء الأثيم .

أليس من حقه أن ينفي ما يرمى به من نعوت ؟

لا . . . إنك لا تملك لنفسك حقاً !
 واعتدل الرجل في جلسته يشعل لفافة تبغ ، وكان ينفخ
 دخانها في ضيق ، على نحو مثير .
 فألفت « سنية » نفسها منساقة تتطلع إلى الدخان المتطاير ،
 وجمجت في غيظ :
 نعم . . . أنت تشعل لفافتك لتخفي ما أنت فيه من حيرة
 وارتابك . . .
 فأشاح الرجل بيده ، وهو يمسك شفته علامة النفي ،
 فسمعها تهمهم :
 إني على حق . . . كل الرجال خونة . . . خونة . . .
 أسمع أنت ؟
 وصدفت عنه « سنية » تلوذ بركن قصي وهي تبرطم ، وقد
 استبد بها نشيج تقطعه تلك العبارة :
 لا تحسبني أغار . . . فهذا آخر ما يخطر لي على بال !
 وماذا عليه إن كان عابثاً ؟ . . . ألم يكن يومئذ مثل هذا
 الهواء طليقاً لا إمرة لأحد عليه ولا سلطان . . . ؟
 وأين هو من الخيانة . . . ؟ ألم تفترض في معرض الحديث
 أنه أعزب ليس في حياته امرأة توجب عليه حقاً يرعاه . . . ؟

يا للنساء . . . !

عليه معالجة الأمر ، عليه أن يرضاها وأن يستغفرها من
ذنب لم يقترفه .

وهب الزوج يترك مقعده ، وسار إلى زوجته يشيع على
محياء اضطراب وأسف ، وحاول أن يحنو عليها ويحتويها في
صدره ، فأزاحته عنها في حركة ثم عن التأفف والاستنكار .

ولكنه هبط على أذنها في ملاينة وتلطف قائلاً :

هبي أن ذلك وقع لك ولي ، أأست تسعين بأن زوجك
أعجب بك قبل أن تصل بينكما عقدة الزواج ؟

فردت عليه في جفاء ، وما فتئت توليه ظهرها ، شائخة
الأنف :

وهل كنا زوجين . . . ؟

فقاطعها بقول محاولاً الإقناع :

لقد أصبحنا زوجين !

فأقبلت عليه توليه وجهها وما برحت شرقة بالدمع :

لم تكن تزوجتنى بعد !

— ماذا يهم ، وأنت نفسك في الحالين بيت القصيد ؟

تألمست الزوجة ، فأردف يقول :

ألم يدلك كل ذلك على قوة إعجابى بك وحبى إياك ؟
 وجنحت « سنية » إلى المسألة ، فجذبها إليه ، فطاوعته ،
 وتمتم فى صوت خافت وهو يحتويها بين ذراعيه :
 ما زلت هائماً بك يا « سنية » ... ملكت قلبى ...
 أحبك ...

فقال له فى تخلع ودلال ، وهى تجتذب منديلته من جيب
 سترته ، تجفف ما تلالأ على خديها من دموع :
 ماذا تقول ؟

أحبك ... أحبك ...
 وتهذ الزوج تهذه مديدة ، فأقبلت الزوجة عليه ، عينها
 متناومة ، وفها يتودد ، فهوى عليها فى قبلة محتدمة ، وعناق
 جياش ! ...

صل من أجلى

انحنى على الطفلة بعوده المفتول ، واستقبل جبينها المرح
يودعه قبله طويلة وهى موشكة أن تنام .

ولامست أنفاسه وجهها ، فطوقت عنقه بساعديها ،
وهبطت على وجنتيه تلمهما فى حرارة وإصرار ، مفضية بما تكن
لعمها من محبة وإعزاز ، فلم يسعه إلا أن يضمها إلى صدره
ضمة اشتياق ، واستغرقا على هذا النحو فى عناق بجياش .

وما إن دار على عقبه ينأى عن السرير ، حتى استنكرت
منه الطفلة فى مهدها ذلك الفراق العجول .

وتشعثت حركاتها ، وكثر شغبها ، فغشى الفراش فوضى وكأن
ما تناثر من أغظيته ، وتبعثر من أرديته غوارب موج علت بها نائرة
الريح ، فانكب العم على السرير يصلح من أمره ويسوى حواشيه .
لم يغب عنه وهو يسجى الطفلة من جديد أن يدمث لها
الوسادة كى يستوى رأسها فى وضع مريح ، فتنام ساكنة البال
قريرة العين ، ثم بسط الغطاء يدثرها به خشية أن يصيبها من برد
الليل أذى .

وسرعان ما عدل قامته ، وأدار ظهره ، ملتصقاً في خطاه
البهو الكبير .

بيد أن الطفلة لم تهدأ لها حركة وتمادت في غيها تصخب .
وفطن العم إلى ما تبتغيه الطفلة : إنها لم تقصد من وراء عملها
هذا إلا المماطلة والتسويق ليمتد اللقاء فلا تشق إلى النوم من طريق .
وحين استدار العم على عقبيه يواجه الطفلة ، تصنع
الغضب ، فأكسب ملامح وجهه سياء الجلد والخزم ، وكذلك
شحد حنجرتة ، في سعة عالية أخرج صوته الهزيل ، جهورى
الجرس ، يوقع في روعها التخويف والترهيب ، وهو يصرفها عن
غيها المأوف كلما أوت إلى الفراش تهدأ وتستريح .

ولما نطق يؤنبها ، انكسرت حدة صوته ، وملكت عقيرته
رنة عطف وخلجة حنان ، وما لبثت أساريره المربدة ، أن
انفجرت يكسوها إشراق .

ايس ذلك بغريب عليه : إن إرادته الصلبة حيال الطفلة
شمعة واهنة تحترق وتذوب .

ومثل للطفلة يبتسم .

بيد أنه ألغماها عاقدة الجبين ، زاوية ما بين حاجبيها ،
ترميه بنظرة يتجلى فيها أسف وعتاب ، فجلس على حافة السرير

يداعب وجنتها بقبلة خاطفة ، وقد احتوى يدها الصغيرة بين
كفيه ، وانبعث يخاطبها في وداعة يقول :

كفاك عناداً يا طفلى . . . مكثت معك أكثر مما
ينبغي . . . لا أود أن أكون سبباً فيما ينشب بينك وبين أمك من
لوم وتعنيف . . . دعى الليلة تنقضى فى سلام . . . هيا . . .
عليك بالنوم . . . أعدك إن شاء الله أن يكون بيننا فى غد لقاء.
وهم واقفاً يخلى خافة السرير .

فتعلقت به الطفلة تغنم فى صوت محزون :
لا تتركنى . . . ابق معى . . . أنا خائفة .
وراع العم ما سمع ، وطفق يمسح على رأسها بيده ، ويلعب
خصلات شعرها الخصب ، متبسّطاً فى الحديث يسألها :

وما سر خوفك يا طفلى ؟
وأطبقت الطفلة على يده وقد استبان على محياها ظلال
امتناع ، وهى تقول :

فى غد يكون الامتحان .
— أو هذا سر اضطرابك يا بنية ؟
وأومأت الطفلة برأسها تؤكد قوله مسيلة الجفنين .
وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يبادرها بقوله :



خيال ما تتوهمين . . . يوم الامتحان لا يخيف . . . ليس فيه ما يعكر الصفو . . . ستجدين فيه ما تألفينه في كل يوم : أنس من أترابك وحفاوة من مدرساتك ومدرسيك .
يا للحجة الداحضة ، ويا للمنطق السقيم !
زعم باطل ذلك الذى ساقه من قول .
لا ريب أن الامتحان ظلله ثقل وموقفه بغيض .
لطالما انتابه منه فزع مروع وهلع مستطير .
أوناس هو ؟

ألم يسعد الليل بطوله خاوى البطن ، محموم الأوصال ، وفي خياله منظر المدرس منتفخاً على مقعده وكأنه ضرغام جسور يحلججه بالنظر الشزر ، وما أسئلته إلا أنيابه المسنونة تنهشه نهشاً ، فيقف منه ، واذلاه ، يابس الفم ، متخشب اللسان ، لا يحسن إلا الفأفة ، وهو يتخبط في أجوبة طائشة .

فلماذا يآلف نفسه الساعة مسوقاً إلى تضليل للطفلة وتغريب ؟
وانتبه العم على صوت الطفلة تناديه ، فالتفت إليها يقول :
هل من جديد ؟

فرقت الطفلة من صوته وهى تعابث حاشية الغطاء :
لى عندك رجاء .

— مطلبك على العين والرأس .

— صل " الليلة من أجل . . . ادع الله أن يلهمني الصواب
فيا أكتب وأجيب . . . إلى بك متفائلة وبدعائك مستبشرة .
— لك ما تبغين يا صغيرتي .

وانحنى على الطفلة يقبل جبينها قبله خاطفة ، وراح في
خطاه يتوخى باب الحجرة ، ولكن صوت الطفلة ناداه يستوقفه
قبل أن يدير مقبض الباب وينصرف ، وسمعتها تقول :
سهوت عن أن ترقيني على مأوف عادتلك قبل أن أنام .
وكر العم راجعاً إليها ، ومر بيده على رأسها هامساً برقيته .
واستشعرت الطفلة راحة تسرى في أوصالها ، واستسلمت للنوم .
وزايل العم الحجرة يحاذر في خطوه ، ومن ثم ترك المنزل
ليلتقى بالطريق ، فصافح وجهه نسيم رطب عطر .
وتحيرت قدماه : إلى أين تسعيان .

وتطلع إلى ساعته فألقى الليل قد توغل ولا أمل له أن يذهب
إلى منتداه المفضل يستمرئ في صحبة الرفاق وقت مؤانسة وصفاء .
ومكث غير قليل لا يعي ماذا يصنع .

ما باله يستشعر أن في دخيلة نفسه ما يشبه حجراً ثقيلاً
يعوق انطلاقه في تلك الأمسية التي رق هواؤها ورطبت أنفاسها .

وتريث في وقفته يبسط أوصاله ويضمها مستعيداً نشاطه المألوف .
وبعد لأى ضرب يديه في جيبى سرباله وأطلق العنان لقدميه
لا يعرف لخطواته قصداً ولا وجهة .

وعرجت به خطاه في طوايا الطريق على ضفة النيل ، فظفر
به يسبح في بلجة من فضة ، نامياً على صفحته القمر مكتمل
التألق والبهاء ، فعقد ذراعيه على صدره وقد تاه في أجواز الخيال .
ما لتلك الطفلة تخوض في شأن صلاحه وتقواه تهرف في
الحديث بما تجهل ؟

من يكون هو في تقديرها لتطالبه بالدعاء ؟
المجرد عبادة وصلاة يصبح قدساً من طهارة وقبساً من نقاء ؟
الصلاة ما هي إلا مظهر ، تكليف واجب الأداء ،
لا يتكيف بها حكم على إنسان .
إن الطفلة لا تعرف من حقيقة أمره إلا مجرد طلاء ، شأنها
شأن المتطلع إلى قبر تحليله النقوش والرموز لا يدري ما تضمه غيابه .
وما قلبه إلا غيابة ذلك الحدث .

كل ما تعرفه الطفلة أن عمها رجل سمح الوجه ، ندى
الكف ، أنيس الجليس ، ملء نفسه تقى وصلاح ...
ولكنها تجهل أن هذا العم لم يسلم من الإثم ، ولم يكن

بالباطر العفيف ؛ لقد وقع في حباله هوى غير مشروع .
 ها هو ذا يعكف في صومعة ضلاله ، ومحراب غوايته ، يحرق
 عقله ويذيب إرادته بخوراً يعطر ذلك الهوى الدميم .
 لم يكن بأقل وثنية من هؤلاء الكهنة المتعبدین الذين
 يستهلكون الساعات الطوال يرددون الصلوات والتعاويد أمام دمی
 خرساء .

أئمة اختلاف بين الإحساس بالرغبة وإنفاذ المبتغى المراد ؟
 كلاهما في عقيدته إثم يصرخ الضمير منه ويلتاع .
 هذه المرأة التي شغفته حباً ذات زوج وولد ، وإنه إن
 التقى بها ، وما أكثر لقاءهما ، سعى إليها بلواحظه يلتم منها
 قدميها الناصعتين المتوردتين ، ثم تسبح عيناه إلى الساق البديعة
 الملساء تموج في جوربها الهفهاف ناعمة بضبة ، ويعلو بأنظاره
 إلى شفتيها المكتنزتين كأنهما حبتان من كرر ناضجتان ،
 وما يزال في تطوافه بالمفاتن مسحور العين ، مشبوب الوجدان .
 أليست صلاته وسط هذه الزوبعة الآئمة ضرباً من الزيف
 والضلال ؟

أيحق للطفلة أن تطالبه بتوسل ودعاء ، وهو كنفه تتداوله
 الأيدي دون أن تفتن إلى زيفه ؟
 ما أكثر ما استمتع بحبه المحرم في أحلام يقظته ورؤى نومه .

فما إن يحتويه فراشه ويغمض عينيه حتى يحس له الوهم
صاحبه تشق الظلمة عليه وتبادره في غلالة كاشفة تهاوج على
خصرها اللدن في إيقاع مترن يساير خطوها الرزين وهي تدانيه
كأنها خطرات النسيم .

وهنا ينسدل الستار على وهمه الكاذب ، فيتنبه من أحلامه
ناقماً على نفسه ، منكراً ما يطوح به خياله فيه .

لا . . . إنه لن يصلى . . . هي كلمة قالها ولا مرد لها .
وصدف عن النهر مهزوم القوى ، ترنح خطاه .
وبلغ شقته .

وما إن احتوته حتى صدمته الظلمة الجاثمة في أرجائها ،
وتعثرت قدماء بما اعترضه من أثاث ، فازداد ضيقاً على ضيقه ،
وانبعثت من حلقه كلمات التأفف والاستنكار ، وعجل إلى زر
الكهربا يطلق الإشراق من معقله فخرج النور يهزم جمحافل الليل .
وقصد ، على الفور ، حجرة نومه يستبدل بملابسه منامته
الرحراحة ، ويستكمل زينة المساء ، ولكنه عزف عنها وما زال
مكتمل البزة قاصداً مكتبته يتودد إلى مجلداته وأسفاره ، فلم
يرقه عبوس الكتاب وهو قائم في صوانه خلف البلور الشفاف ،
ففزع إلى حجرة الجلوس ، وعرك مفاتيح المدياع ينطقه ،
بيد أنه ما أبطأ أن أسكنه ، ومضى إلى البهو الفسيح ، وهكذا

أخذ يحوم في الحجرات مثل النحلة الدؤوب ، تضيق به
رحبات شقته ، دون أن يركن لمقعد أو يخلد إلى ركن ، يصيب
عنده طمانينة البال .

يا لله . . . الطفلة ما فتئت تطارده حيث حل ، وتطالبه
في ضراعة بالنجدة والغوث .

كيف تتمم شفتاه بدعوة ، وكيف به يجهر بصلاة .
أليس هو الآثم الأكبر : ما رعى خلقاً ولا فضيلة ،
وما كان ممن تحتق بأدعيتهم أبواب السماء .
وامتدت يده إلى عنقه تفك عنها رباط الرقبة ، ثم عمد إلى زر
بنيقته يفتحه .

وخطا إلى النافذة يملأ رئتيه بالهواء بعد أن تخفف من
سترته ، وشعر عن ساعديه . .
وشعر بشيء من الراحة .
بهذ أن حلقة يابس يطلب جرعة ماء .

وذهب إلى المستحم ، وقابلته المرأة ، فثل يتوسم وجهه وكأنه
ينظر إلى شيء بغيض يمجج ويكرهه .
أنضح وجهه بما طوى عليه صدره من غواية وضلال ،
فانطبع على المرأة يشوه إهابها المصقول ؟
كفاه تحديداً إلى شبحه المستوم .

فليعمد إلى الماء يبل به ريقه ويمسح وجهه ليعيد إلى
شحوبه نظرة الحياة !

وانبسطت كفه إلى صنبور الماء تدبير مقبضه ، فانبتق الماء
يفور في الحوض ويمور ، بيد أن كفه بقيت ساكنة لا تمتد إليه .
متى كان الماء يمحو ما اصطبغ به وجه إنسان من خبث
ولؤم وضلال ؟

أفي مقدور رذاذ أن يغسل المأثم ، ويطهر ضمائر العصاة ؟
يا الله ، لكأن تحرير الماء عبارات الطفلة تنال عليه واضحة
النبرة ، جليلة الجرس ، تحثه أن يجهز نفسه بالوضوء ليشرع
في الصلاة والدعاء .

لا وضوء . . . ولا صلاة . . .

عليه أن يرد الماء عن مجراه ، وينصرف عن المستحم ،
مسارعاً إلى فراشه ينشد فيه الأمن والسلام .

واندفعت يده إلى صنبور الماء تريد حبسه ، وما هي
إلا أن أحس بالماء يغمر فمه ، ووجهه وقدميه ، فما نشب أن رام
المستحم إلى حجرته ووقف يتحرى القبلة ويستقبل وجه الله .

وخطرت له في صلاته توسلات الطفلة أن يدعو لها ، فإذا
هو ينخرط في دعاء وتضرع وابتهاال ، سائلاً لنفسه هو دون
سواه العفو والغفران .

الخاتمة

كان جالساً خلف مكتبه ، في الحجرة التي اختارها لنفسه
من ذلك المنزل الرشيق ، الذي استأجره على أرباض المدينة ،
حيث تنكمش الحركة ، ويسودها السكون ، فجعل منه مثابة
الإلهام ، ومنزل الوحي .

لم يألفه صباح اليوم ، متفتح النفس ، على مألوف عاداته ،
بل هو خامد الملامح ، مربد الوجه ، يستغرق في تفكير ،
وقد انكب على أوراقه ، يشغل بها نفسه في تدقيق وتمحيص ،
ملتصماً لقصته الروعة والسمو .

ما لها تتعاصى على قلمه وتتأبى على فهمه ، منذ حين ؟
أيرجع إجداب فكره ، وجفاف قريحته ، لما أفرط فيه من
سهر في مغنى « الفن الرفيع » بصحبة « أمينة مكتبه » الحسنة ؟
إن عقله اليوم مشئت عليل ، لا يجود له إلا بتافه من
الخواطر ، وفج من الأفكار .

عليه أن يدبر نهاية لقصته ، ولا بد أن تكون مثيرة عامرة

١٣٠

بالحيوية والانتفاض ، وها هو ذا قد وقف قلمه حائراً ، يضمن
بما يطمع فيه من حبكة موفقة ، وختام مثير .

ودانفت يده إلى لفافة تبغ ، أشعلها ثم اشتبك مع أوراقه
في عناد ، يعتصر ذهنه ، ويجمع شوارد خاطره ، وكأنه يسوق
قلمه الشرود سوقاً إلى ما يرغب فيه ويريد .

وتمثل في مخيلته طيف « أمينة مكتبه » الحسناء وملك فكره
أمرها .

أتراها تستهويه لأنها تأنس به ، وتعجب عليه بما تحمل
بين جوانبها من قلب كبير ؟

أم لأنها تلدني منه منال الوحي ، وتعينه في ساعة الإلهام ؟
أفوق مستطاعه أن يزاول عمله بمفرده ، في صحراء خواطره ،
ومتاهة أفكاره ؟

وحانت منه التفاتة إلى ساعة احتلت من مكتبه ركناً قبعت
فيه ، وكأنها الراضد اليقظ ، يحصى عليه وقت العمل ومدة
الإجهاد .

فحدجها عاقد الجبين يتعرف !
وهز كتفيه ، يبرطم ، حين لاحظ أن النهار أوشك
أن ينتصف .

وانكب على أوراقه ، يعاود المطالعة والتفكير ، بيد أنه لم
يخط في عالم الرأى خطوة يتصيد بها ما ند من خواطره ،
وشرد من أحاسيسه

سحقاً لذلك اليوم المنحوس .

لا بد أن تكون « أمينة مكتبه » قد حضرت ، وأنها
— لا شك — في انتظار غمزة الجرس ، لتقبل عليه كشأنها معه .
أيدعوها الآن ، ولم يخط قلمه منذ الصبيحة الباكرة جملة
صافية ، أو فكرة عالية ؟

وتطاول له رأس الجرس ، من بين كومات الأضابير ،
يخنتق بها مكتبه ، يدعوه إلى غمزه ، فتطلع إليه ، ويده تقبل
عليه وترتد ، وقد اعتصر جبهته ، فاستبانت عليها ثنايا التجاعيد ،
تكشف عن تحير وإحجام .

وجذب من لفافته أنفاساً طويلة ، ثم هز منكبيه ، ينصرف
بأنظاره عن رأس الجرس .

لا . . . ان يدعوها . . . ليعالجن مشكلته بنفسه ، دون
معونة أو إرشاد .

لن ينادىها حتى تختمر في رأسه الفكرة ويسلس له عنان
التعبير ، لكي لا يكون لها من مهمة ، إلا أن تتسمع من فمه

ما يتدفق به من قول ، فتدونه على الورق كآلة الصماء .
 واستأنف يحمل عينيه على القراءة ويلقى بفكره فى أودية
 الأخيلىة والتصورات مستبطناً سر الموقف القصصى الذى التوى
 عليه .

أما « أمانة المكتب » الحسنة ، فقد كانت فى حجرتها
 المجاورة ، خالية إلى نفسها ، مستغرقة فى تفكير ، فند وفدت
 على المنزل مع الصباح الباكر ، وهى تتحين لقاءه ، لعلها
 تظفر بخبيثة نفسه ، وما ينحى عليه صدره من أنباء حالية ،
 وأخبار تتلأأ بوميض آمال عراض .

لقد أنبأها — وهما مجتمعان فى مسهرهما المفضل ، ليلة
 أمس — أنه ملئ الوفاض بما تسعد به وتسر ، فلما حثته على
 الإبانة والإفصاح ، أمهلها إلى غد ، وهو يلاطف يدها ،
 ويعابثها ، فى تبسط وظرف .

فلما خلت بنفسها ، فى مرقدها ، نبا بها المضجع ،
 وقضت ليلتها مسهدة ، لا يغمض لها جفن ، تتقاطر عايبا
 مشاهد من حياتها ، منذ نجم بينهما عارف وتزامن ووصال .
 أما كيف تم بينهما التلاقى ، فقد اتصلت عراه عقب
 إعلان فى الصحف قرأته ، فتقدمت تعرض لخدماتها عليه .

١٣٣

لقد راعها منه وجه حسن ، وقامة معتدلة ، ودماثة خلق ،
حتى إن قلبها لم يتمالك أن يخفق خفقاناً مضطرباً سرى في أوصالها ،
فكان كلا منها قلب على حدة يخفق ويرف .

كم كان حفيظاً بها حتى إنه تهادى في إكرام وفادتها ، فأفرد
لها مكاناً بجانبه ، وقدم إليها لفافة تبغ ، فاعتذرت عنها في
أدب ، فطلب لها قدحاً من شراب الليمون ، وما عزم أن لاطفها
في الحديث ، يرفع كلفة اللقاء الجديد ، واثني يسألها نثراً
من أخبارها .

وألقت نفسها منساقة ، تجيب في غير خجل ولا تهيب ،
تروي له قصة حياتها كاملة ، فوقف منها على أنها تعيش في
كنف أم مريضة ، تتطلب منها التعهد والرعاية ، وقد توفي
والدها ، مخلفاً لها رصيذاً ضئيلاً لا يسد نفقات العيش وأعباء
الحياة ، فالتحقت — لكي تجابه مسئولياتها — بأحد معاهد
الآلات الكاتبة تتدرب على أعمال الكتابة والاختزال ، وتلك هي
مقبلة عليه ، لتظفر منه بما يعينها على التكسب من رزق حلال .
وشيعها إلى الباب . وقبل أن يغلقه طاف بها في أرجاء
المنزل ، فاستوقفها أمام حجرة من حجراته وهو يدفع بيابها يقول :
هنا مكتبك . . . الآلة الكاتبة في انتظارك ، لكي تنجزى
بها ما تراكم من عمل .

كادت تنفجر يومئذ ، من فرط حبورها ، عندما رامت منزله ظافرة منه بكلمة الرضا عنها ، والترحيب بعملها .
وما إن استقبلت أمها المريضة ، حتى انهالت عليها في حماس ، تثني عليه وتمتدحه ، فلم تلق من والدتها إلا التحذير والتخويف والنصح .

أليس الرجال كلهم من طينة واحدة ، ومنبت مشترك ! !
نشأوا غلاظ القلوب ، وتدريبوا على أذية النساء ؟ !
ولكنها في زحمة نشوتها ، لم تعر تلك الثروة الواهية كبير اهتمام ، وأوت إلى فراشها ، ضجيجة حلم بهيج ، أذلك هو الحب الذى يصيب من أول نظرة ؟

أمستغرب عليها ، بعد هذه الليلة البهيجة ، أن تتحين لقاءه ، فى هذا الصباح متوقعة أن يتصرج جبينها بحمرة الحجل ، ويسودها - كلما تطلع إليها - ارتباك ؟

ونأمت فى الحجرة حركة ، فانتبهت تسمع ، عله يكون الجرس قد انبعث يدعوها إليه ، ولكنها لم تجد إلا صمتاً كأنما يتلصص عليها ، ويرصد منها خفايا الهواجس والأفكار .

وسمت إلى ساعة الحائط تتبين الوقت ، فإذا النهار وشيك الانتصاف ، وها هى ذى حبيسة حجرتها ، مشبوبة الوجدان ،

مقسمة الفكر ، تتحين صلصلة آلة صماء !

وداخلها قلق .

ماله يبطل عليها ؟

ألم يظن أنها أصبحت ظله الذى يأبى أن يفارقه ؟

أغائب عنه أنها صارت خلال تلك الشهور من تلاق
وتلازم ، يؤنسها منه فى تلك الحجرة سيل من مشاعر فياضة
رقاق ما تتمثل لها على الورق أناساً متقدمة الحس حتى تألف
معهم الحياة وتتوثق بينها وبينهم عرى مودة وإيناس .

أغائب عنه أنها قد صارت خلقه الذى صاغه وسواه فهم
وحى من صنع خياله وفكرة من فيض إلهامه ؟
إن تلك المثابة الفنية لهى الخبار الذى أذاب فى أحماضه
شخصيتها الأولى ثم أطلقها منه إنساناً جديداً يعتمل فى قلبه حب
ويصطرع فى رأسه آمال .

الأجدر به أن يلقاها على الفور ، ويروى سمعها بما أخفاه
عنها من أخبار مشرقة .

وفيا هى مستغرقة فى غمرة تلك الأفكار ، صلصل الجرس
طويلاً ، فما عتم وجهها أن اكتسى بالبهجة والإشراق ، وسارعت
إلى مرآتها تلقى عليها نظرة فاحصة .

لقد حانت الساعة الحاسمة ، وآن له أن يكشف النقاب
عن خبيثة نفسه .

سوف يطلق ، ساعة يلقاها ، ما في جعبته بخوراً تفوح
أطيباه ذكية ، فتنشئ بشداه العبق ، وتأنس به .
وغيب المرأة في حقيقة يدها ، بعد أن أصلحت ما تهوش
من شعرها وأمرت على شفيتها القلم المحمر ، تعيد إليهما وجاهة
الرونق .

وسرعان ما دفعت الباب الموصل إلى مكتبه ، في رفق ،
فأسفر عن وجهها البهي ، وقامتها المبسوطة ، ومنكبها العريضين ،
لفهما إليه مطرف من حرير ، يحليه وشى متآلف جميل ،
وقد انطوى ساعداها على رزمة من ورق ، وتطاول بين إصبعين
من يدها قلم .

وتجلت عند الباب مشرقة الملامح ، متوهجة الجبين ،
بذلك اللقاء المرتجى .

وتشبثت بالمقبض تنظر إليه ، ملتمة عينها ، منبسطة
أساريها ، وقد تراحبت على شفيتها انتسامة متألفة ، كأنها
زهرة تختلج نشوى على عودها الرطب ، مشرقة الأكمام ،
يطالعها وجه الربيع الندى .

لكنه لم يرفع رأسه ، ولم يلتفت إليها . إنما ظل على حاله ،

١٣٧

يقلب الصفحات أمامه ، ويرقبها ، كأن لم يدخل عليه أحد ،
مغضن الجبين ، تتوضح على محياه علامات التزمت والضيق . .
فلم تجد الفتاة بدءاً من أن تغلق الباب في عنف ، عمل ذلك
المتحجر على مكتبه يفيء إلى نفسه ، ويتنبه إليها ، واسترسلت
تحدثه في غضب ، غير أنه تمادى في انهماكه ، منصرفاً
عما عداه ، مما زادها من تغيظ وحنق .

وكادت كلمات الاستياء تفلت منها تسائله في تحد ، عن
دواعي ذلك اللقاء الجاف ، لكنها ملكت نفسها ، وآثرت الصمت .
وما لبثت أن تخلت عن الباب ، تدلف في الحجرة في خطا
رعناء ، حملتها إلى المقعد عن كئيب منه ، فقالت عليه غير
معنية بما تهوئ منها ، تلتهمها نار الخيرة ، وتمضها لوعة الوسواس
والظنون ، وكأن خبر الأمس المضى ، ذبالة شمعة حاسرة
النور ، مطموسة الوهج ، في شعاع الشمس المصبحة .

لم ينظر إليها ، ثم صاح محققاً يقول :

لم أعد أحبك . . . أما فهمت بعد . . . ١٢

واضطربت الفتاة ، وتسارعت دقات قلبها ، ثم تضرع
وجهها بحمرة قانية ، وسادها ارتباك وسهوم .

وطأطأت رأسها ، تتشاغل بأثناء ثوبها ، تخفى ذهولها
من هول المفاجأة .

أما هو ، فصدر عن المكتب عاقداً يديه خلف ظهره ،
واستقبل النافذة ، ينظر منها وينفث دخان لفافته جزافاً ،
فيتلوى على زجاجها ويغشاه . . .

ويظل على هذا النحو مستغرقاً في تأمل وصمت .
غريب منه ذلك الصنيع .

إنها لم تألفه فظاً غليظ القلب على هذا النحو ، حتى إن
الابتسامة الوضيئة التي كان يلقاها بها لم يرف لها وميض ،
ونظراته المعبرة لم تتوضح ، وكلمة الترحيب الطيبة ليس لها في
الحجرة صدى ورنين .

أهذا هو النبأ المشرق الذي أزمع أن يفك عنه طلاسم الأسرار
ويبشها إياه ؟ !

ليته كتبه عنها ولم يراوح لها به .
لأنه انقلب أفعى تسعى بين يديها ، لا يحسن إلا اللدغ
بما اختزنه من قوائل السموم !
ما ينبغي لها بعد الآن أن يعتمل في قلبها حب وتبرق في
رأسها آمال .

وأفاقت الفتاة على صوته الراعد يقول :

لا تنكرى سنة الحياة . . . النار تخبو . . . والثوب يبل . . .
والحب لم يسلم من يد العفاء . . . قلبي لم يعد يتسع لك . . .
إني أكرهك . . . لم أعد أحبك وأهواك . . . وجب عليك أن
تقبل الأشياء على علائها بصدر رجب ، ونفس راضية .
وما كادت الكلمات تتوضح لسمعها ، وتبلور في عقلها ،
حتى ضاقت بها الحجرة ، وكأن جدرانها سواعد غليظة العضلات
أطبقت على عنقها تعصره اعتصاراً ، وأن ما يحيط بها من فضاء
هو جب سحيق المهوى ، حاسر الضوء ، مخنق الهواء .
فامتقع وجهها ، وتسارعت أنفاسها ، وحدقت في الأوراق ،
على ركبتيها ، فتسثلت لها غوارب موج ، تمر أعماقها بسوالف
الأحداث ، ومواضى اللكريات .
لم يسعها إلا أن تتذكر تلك الليلة التي قضياها على أرباض
المدينة الساجية ، في نزهة خلوية ، على ضوء القمر .
ألم يفتح لها قلبه ، وينفض بين يديها جعبته كطفل التي
بالصدر الحنون ، فاسترسل ينفث فيه رغباته وأمانيه ؟
لقد اندفع يشق غلاثل الضباب ، الذي يكتنف المستقبل
المبهم ، صاروخاً منطلقاً إلى أعلى يرتاد مجاهل السماء ومطوى
الغيوب .

كان وهماً جميلاً ذلك الذى صورته ورعاه .
إنه هياً لها فيه مكاناً شغلته . . . بل كانت هى الشمس
التي تحف بها أفلاك وأقمار .

سوف تصبح رفيقة أسفاره ، وحليقة أفكاره ، ترصد له ،
وتدون ما يخلج في نفسه من تجارب واستجابات للحياة والأحياء .
سوف يطيران إلى بلاد الفن الخالدة ، يستقبلان ربوع
أسبانيا المشرقة ، وإيطاليا الضاحكة ، وسويسرا المهتمة ،
وألمانيا المجدة ، وفرنسا الالهية اللعوب .

سوف يتخطى بها ومعها أدبه حيزه الضيق لينطلق إنسانياً
متطوراً ، يكتب له في سماء الفن العالمى السمو والخلود .

لماذا حدثها ذلك الحديث المستفيض وهو قريب عهد بها ١٢
لماذا كان يملأ قلبها بالأمانى الرطاب ، والأخيلة العذاب ١٢
أعزب عنه أن قلبها بالحياة حفى كالأرض البكر ، سرعان
ما تنضمر وتخضر ، إذا أتبع لها زرع ورى ؟

وسمعتة يتهد تنهدة جياشة ، فاشربت بجسدها كله إليه ،
وإذا به ما زال إلى النافذة رانياً ، يوليها منكبينه عاكفاً على صمته ،
غارقاً في تأملاته .

فما لبثت أن تهاوت بقوامها على المقعد متخاذلة ، وألقت

برأسها على مسنده ، وقد أمسكت بالقلم تقرض أطرافه في تغيظ .
 كم ودت أن تكاشفه ساعة أسدل على منكيها ذلك
 المطرف الموشى ، بما يعتمل في نفسها من مشاعر جياشة ،
 لكنها سكتت ، لا تملك إلا أن ترنو إليه ، وترنو مشبوبة
 العاطفة ، مضطربة الوجدان .

أما هو فلم يتفوه بكلمة ، غير أنه ضغط يدها ، وضغط
 حتى آلمها ، ولكنه ألم أشعرها بالحب وغمرها بالسعد .
 كم كانت تواقه أن تهمس له من أعماق قلبها : ألم تدرك
 بعد أن يجانبك مخلوقاً يفهمك ويقدرك . ويدوب عطفاً لك
 ومودة ؟

ما أروعه من يوم ، عندما خلط بين اسمها واسم النجم
 اللامع في روايته ، فأخذ يسكب في سمعها كلمات الهوى والغرام ،
 لا يحده في انطلاقه حاجز ، ولا يوقف تياره مانع . كتلك
 الأقمار الصاعدة من الأرض لا تملك إلا أن تدور مشدودة
 إليها بما للجاذبية من سلطان .

ليته لم يعتذر لها عندما تبين الخطأ .
 ليته تركها واهمة تحسب الخطأ حقيقة صادقة .
 لماذا لم يستقبلها بوجهه ساعة ضمتها الحجرة إليه ؟

لماذا بقي نافرأ يوليها ظهري ؟
 أجبن أن يواجهها خوفاً من أن يلين قلبه ويرق ؟
 أعلى هذا النحو يختم حلمها القصير معه ؟
 إنها لا تحتمل . . . أعصابها مرهقة إلى حد التخاذل
 والإعياء .

يا لها من غمام قائمة تلك التي تغشى سماءها الصافية !
 ويخرج هو عن صمته ويقول راعش الصوت :
 علينا أن ننفضل في هدوء . . . ليكون فصالنا بمنأى عن
 زوابع التشيع والبكاء ، وشوائب التبكيت والعتاب . . . الحياة
 معك فقدت رونقها الجميل وطعمها الحلو . . . عليك
 بالرحيل . . . مبلغ من المال يعوضك ما لحق بك من
 ضرر . . . لم أعد أحبك . . . وإنى على يقين من فطنتك
 وذكائك . . . لا تجعل المهمة عسيرة على . . .

واهترزت الفتاة كأنها استهدفتها لكمة عنيفة ، وغلى الدم
 في رأسها ، ثم ما لبثت أن انفجرت واقفة تصيح :
 كفى . . . كفى . . . لقد تجاوزت الحد . . . إنك جامد
 كالصخر ، متغير كالهواء ، متقلب كالبحر . . . إنك قاس
 وخشن لا تعيش إلا من نفسك ولنفسك . منذ الآن لن أقف في

١٤٣

سبيلك . . . سأختنى من حياتك . . . سأكون خيالاً في
ضباب فنك ، وفكرة في سماء إلهامك إن بقي لك إلهام وفن . . .
الوداع . . . الوداع إلى الأبد . . . إلى أمقتك . . . أمقتك . . .
أكرهك من أعماق قلبي .

وهرولت الفتاة خارجة يستبد بها تشييع ، وتخنقها عبارات ،
وقد قلقت المكتب بالقلم ، ودفعت بالورق فتناثر على أديم
الحجرة كأنه فئات قلبها الكسير .

واندفع هو يقول في حماس :

رائع ذلك . . . موقف مثير . . . دونه . . . لا تسقطي
منه حرفاً . . . رائع . . . مرحى . . . مرحى . . . خاتمة فيها
ولا ريب الروعة والسمو .

واستدار على عقبه مهلل الأسارير ، فما كان أكبر دهشته
عندما التفت بمقعدها خالياً بنفسه ، وقد انسدل عليه مطرفها ،
وكأنه يحده في أسف وزهول .

وران على « رب الحجرة » سهوم ، ثم اندفع نحو الباب ،
وانطلق في مختلف الأرجاء مردداً اسمها في صوت جهورى
ملهوف !

فهرس

صفحة	
٥	الإهداء .
٦	أعترف إليك .
١٣	ضابط الإيقاع .
٣٠	إفلاس .
٤٣	نور وهاج .
٥٦	سيكس أبيل .
٧٩	نداء .
٩٠	العقبة .
٩٥	ريحان القبور .
١٠٤	خمسة قروش .
١٠٩	ساعة راحة .
١١٨	صل من أجل .
١٢٩	الخاتمة .

١٩٨١ / ٢١٥١	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٧٣٤١-٨٤-٩	الترقيم الدولي

١/٨١/٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

